

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية أصول الدين

قسم الكتاب والسنة

قسم السنة الثالثة ل ، م ، د

مادة: مناهج المفسرين

من النشأة إلى ما قبل العصر الحديث

إعداد: د. رمضان يخلف

السنة الدراسية: 2013 - 2014م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مفردات المادة

. التعريف بمادة مناهج المفسرين . دواعي البحث في مناهج المفسرين

. نشأة التفسير ومراحل تدوينه.

. التفسير في عصر النبوة: مصادره ، قيمته العلمية ، مميزاته.

. التفسير في عصر التابعين : مدارسه مميزاته ، قيمته العلمية

. التفسير في مرحلة التدوين وخطواته

. ظهور نزعة التفسير الموضوعي

. التفسير بالمأثور

. تعريفه .

. اللون الشخصي للتفسير بالمأثور.

. عيوب التفسير بالمأثور: 1. الوضع في التفسير 2. شيوع الإسرائيليات 3. حذف الإسناد.

. أشهر المؤلفات في التفسير بالمأثور:

1 . جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري

2 . بحر العلوم للسمرقندي

3 . الكشف والبيان عن معاني القرآن للثعلبي

4 . معالم التنزيل للبغوي

5 . المحرر الوجيز لابن عطية

6 . تفسير القرآن العظيم لابن كثير

7 . الجواهر الحسان في تفسير القرآن

8 . الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي

. التفسير بالرأي

تعريفه، وموقف العلماء منه.

. تحرير موضع الخلاف.

. العلوم التي يحتاج إليها المفسر

. أشهر كتب التفسير بالرأي

1 . مفاتيح الغيب للفخر الرازي

2 . أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي

3 مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي

4 . لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن

5 . البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي

6 . غرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري

7 . تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي

8 . السراج المنير للخطيب الشربيني

9 . إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود

. التفسير عند الفرق الكلامية (أو التفسير بالرأي المذموم)

1 . التفسير عند المعتزلة

. نشأة المعتزلة ، مسلكهم في التفسير

. إنتاجهم التفسيري:

1 . تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار

2. غرر الفوائد ودرر القلائد للشريف المرتضى

3. الكشاف للزمخشري والتعريف به

2. التفسير عند الخوارج

. نشأة الخوارج

. قلة إنتاجهم التفسيري وأسبابه

. أشهر التفاسير عند الخوارج، الإباضية.

3. التفسير عند الشيعة

. نشأة الشيعة

. الإنتاج التفسيري عند الشيعة

. مجمع البيان للطبرسي والتعريف به

. التفسير الفقهي للقرآن الكريم

. نشأة التفسير الفقهي.

. أشهر كتب التفسير الفقهي:

. أحكام القرآن للجصاص الحنفي

. أحكام القرآن لكيا الهراسي الشافعي

. أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي المالكي

. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي المالكي

. التفسير الصوفي للقرآن الكريم

. التفسير الباطني ، أو التفسير الرمزي وحكمه ، وبعض إنتاجه

. التفسير الإشاري، طبيعته وحكمه ، وبعض إنتاجه

. التفسير العلمي للقرءن الكرىم

. نشأته وتطوره

. ظهور الخلاف حوله

. مبررات عودته.

. مشروعيته والحاجة إليه

. الخاتمة .

مصادر المادة

المصدر الأساس:

- التفسير والمفسرون

بعض المصادر و المراجع المساعدة:

- | | |
|------------------------------|---|
| د/محمد حسين الذهبي | 1 . البرهان في علوم القرآن |
| بدر الدين الزركشي | 2 . الإتيقان في علوم القرآن |
| جلال الدين السيوطي | 3 . التحبير من علم التفسير |
| " " " | 4 . طبقات المفسرين |
| " " " | 5 . مجموع الفتاوى مج 13 ، مج 14. |
| ابن تيمية أحمد بن عبد الحلیم | 6 . مناهل العرفان في علوم القرآن |
| عبد العظيم الزرقاني | 7 . أصول التفسير وقواعده |
| خالد عبد الرحمن العك | 8 . التيسير لمعرفة المشهور من أسانيد وكتب التفسير |
| يحيى بن علي الحجوري | 9 . كيف يجب علينا أن نفسر القرآن |
| محمد ناصر الدين الألباني | 10 . شرح مقدمة التفسير |
| محمد بن صالح العثيمين | 11 . المقدمة |
| عبد الرحمن بن خلدون | 12 . بعض كتب التفسير القديمة والحديثة |
| لمجموعة من المفسرين | |

مدخل إلى مناهج المفسرين

تعريف

تشتق كلمة " منهج " من الفعل " نهج " أي سلك طريقا معينا، وبالتالي فإن كلمة " المنهج " تعني الطريق والسبيل، ولذلك كثيرا ما يقال أن طرق البحث مرادف لمناهج البحث. وترجمة كلمة " منهج " باللغة الإنجليزية ترجع إلى أصل يوناني وتعني البحث أو النظر أو المعرفة، والمعنى الاشتقاقي لها يدل على الطريقة أو المنهج الذي يؤدي إلى الغرض المطلوب. ويعرف العلماء " المنهج " بأنه فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن حقيقة مجهولة لدينا، أو من أجل البرهنة على حقيقة لا يعرفها الآخرون. ومن هذا المنطلق، يكون هناك اتجاهان للمناهج من حيث اختلاف الهدف، أحدهما يكشف عن الحقيقة والآخر يقيم البراهين عليها¹.

أما ارتباط مصطلح " منهج " بأعمال المفسرين فهي تعني البحث في الأسس الفكرية والمذهبية التي ارتضاها المفسر أو تأثر بها فأقام عليها عملية تفسيره للقرآن الكريم، وهو ما ألمح إليه الزركشي في قوله " : وقد أكثر الناس فيه من الموضوعاتما بين مختصر ومبسوط، وكلهم، وكلهم يقر على الفن الذي يغلب عليه فالزجاج والواحد يغلب عليهما الغريب ، والثعلبي يغلب عليه القصص ، والزخشري علم البيان، والإمام الفخر وعلم الكلام وما في معناه من العلوم العقلية².

دواعي البحث في مناهج المفسرين

هناك دواع كثيرة للبحث في مناهج المفسرين، ونذكر منها:

- 1 . أن القرآن الكريم قد لقي من الدراسة والبحث والتفسير ما لا يمكن أن يحيط به طالب علم بحال من الأحوال، فكان من باب تقريب هذه المادة العلمية إلى الباحثين إطلاع طالب العلم على مناهج أصحابها ومسالكهم في كتبهم لتيسير الإفادة منها .

¹ . البحث العلمي حرفة وفن، د/منصور نعمان ود/ غسان طيب النمري، الأردن، 1998.

² . المصدر السابق: 13/1.

- 2 . أن تفسير القرآن الكريم بحر زاخر لا شاطئ له، ولذا نجد كل مفسر قد ركز على جانب أو جوانب معينة بحسب ما تخصص فيه من العلوم، فكان لزاما علينا إطلاع طالب العلم على طبيعة هذه التفاسير والجوانب التي اهتمت بها على حساب جوانب أخرى، وهذا كثيرا ما يساعد الباحث ويوفر عليه الجهد والوقت، فيعرف كل مسألة في التفسير ومظاهرها.
- 3 . أن القرآن الكريم يفسره اللسان كما يفسره الزمان، ولذلك نلاحظ بعضا من أقوال المفسرين مما كان يعد تفسيراً لبعض آيات القرآن أثبت الزمن أنه لا يمكن أن يكون مثل ذلك تفسيراً لكتاب الله تعالى، ومثال ذلك قول القرطبي في تفسير قوله تعالى: "وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا.." ¹ حيث قال: (وفي هذا دليل على بطلان قول من قال بكروية الأرض من علماء الهيئة وغيرهم..). وفي تفسير الكشاف للزمخشري نجده يقف عند مثل قوله تعالى: "وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم" ² فيقرر أن هذا دليل على فساد قول علماء الهيئة بأن البحر هو مصدر الماء والمطر، ويرى أن مصدره السماء..
- 4 . إن أغلب ما وضع من كتب التفسير لا يخلو أن يكون قد كتبه أرباب نحل ومذاهب فكرية واعتقادية لا تسلم من النقد والطعن عليها، وقد وضعوا هذه التفاسير بغرض التمكين لمذاهبهم والترويج لها مما يستدعي تتبع هذه الأعمال والتنبيه على ما فيها من محاذير ومفاسد.
- 5 . أن هذه التفاسير على اختلافها وتفاوتها من حيث الكمال فإنها لا تخلو جميعا من النقائص والثغرات، وأن هذه النقائص والثغرات قد تبلغ أحيانا درجة من الدقة والخفاء يصعب معها التنبيه إليها، وهذا الإمام الطيبي يقول في مقدمة حاشيته على كشاف الزمخشري: لقد استخرجت اعتزالاته بالمناقش.. ويريد بذلك شدة خفائها والتباسها بغيرها من الآراء الكلامية، ومن هنا كان من الواجب تنبيه طالب العلم إلى هذه المزالق الوعرة والمسالك الصعبة.

¹ . انظر تفسير هذه الآية ، سورة الرعد: 3 ، في الجامع لحكام القرآن.

² . سورة البقرة الآية: 22.

تعريف التفسير :

التفسير في اللغة الإيضاح والتبيين، وفي الاصطلاح: (هو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية)¹ وقيل (إنه علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه ، واستخراج حكمه وأحكامه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات..² أما التأويل فهو في أشهر معانيه عند المتقدمين مرادف للتفسير، وقد عرفه أهل العلم بتعاريف أخرى، منها أن التفسير ما كان راجعا للرواية والتأويل ما كان راجعا للدراية، وقيل إن التفسير ما تعلق بنص واحد واحتمل معنى واحدا والتأويل ما تعلق بنص واحد واحتمل أكثر من معنى.

أما عند المتكلمين فهو صرف اللفظ عن معنى ظاهر إلى معنى خفي لدليل يقترن به³.

¹ . عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن 3/2.

² . الزركشي ، البرهان في علوم القرآن، دار الفكر، ط3 ، 13/1.

³ . انظر خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، دمشق ط2 ، 1986، ص: 52.

نشأة التفسير وتطوره

المرحلة الأولى من التفسير: التفسير في عصر النبوة

كان طبيعياً أن يفهم الرسول صلى الله عليه وسلم القرءان الكريم جملة وتفصيلاً لقوله تعالى: "وأزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون"¹ وقوله تعالى: "فإذا قرأناه فاتبع قرءانه ثم إن علينا بيانه"² كما كان الصحابة يفهمون معانيه على وجه الإجمال³ أما فهمه على وجه التفصيل فكانوا يتفاوتون فيه بقدر علمهم باللغات التي نزل بها القرءان الكريم، ومدى صحبة كل واحد منهم للرسول صلى الله عليه وسلم، ومعرفة ملبسات التنزيل، ويتضح هذا من خلال اشتهاار قلة من الصحابة بالتفسير، ورجوع باقي الصحابة إليهم .

مصادر التفسير في هذه المرحلة :

الأول . القرءان الكريم: وهي الخطوة الأولى أمام كل مفسر، فما جاء مجملاً في موضع جاء مفصلاً في موضع آخر، وما جاء مطلقاً في موضع منه جاء مقيداً في موضع آخر .

الثاني . النبي صلى الله عليه وسلم: فكثيراً ما كان الصحابة يرجعون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أشكل عليهم من كتاب الله فيوضحه لهم، وهذا واضح لمن يرجع لكتب الحديث، فيجد مرويات كثيرة في التفسير مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، من ذلك ما رواه الإمام أحمد وغيره مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن المغضوب عليهم عم اليهود والضالين هم النصارى في سورة الفاتحة، وأن كلمة التقوى . في سورة محمد . هي لا إله إلا الله .

وهنا يرد علينا سؤال مهم وهو : هل فسر الرسول صلى الله عليه وسلم كل القرءان أم لا؟ فمن العلماء من ذهب إلى القول بأنه فسر كل القرءان، ومنهم من ذهب إلى أنه لم يفسر منه إلا القليل⁴، والبحث في أدلة الفريقين يدل على غلبو عند كل فريق في ما ذهب إليه، والظاهر

¹ . سورة النحل : 44 .

² . سورة القيامة : 16 .

³ . ابن تيمية ، مجموع الفتاوى، 331/13 .

⁴ . انظر ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير القرءان العزيز 16/1 .

هو التوسط في القول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم فسر من القرآن بالقدر الذي أشكل على أصحابه، وهذا واضح من خلال كتب التفسير بالمأثور وكتب الحديث .

الثالث . الاجتهاد وقوة الاستنباط: وذلك فيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة، وكان يحتاج إلى نظر واجتهاد، وكان للاجتهاد عندهم أدوات منها معرفتهم بأسرار اللغة ومدلولاتها المختلفة، ومنها معرفتهم بأحوال العرب وعاداتهم، وأحوال أهل الكتاب، وكذا معاشتهم لظروف التنزيل، وقوة الفهم وسعة الإدراك، وإحاطتهم بمقاصد الإسلام وهديه.

الرابع . أهل الكتاب : لم يكن رجوع الصحابة إلى أهل الكتاب له من الأهمية في التفسير ما للمصادر السابقة نظرا لما أصاب كتب اليهود والنصارى من التحريف، ولما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم من النهي عن الأخذ عنهم، ولم تصدر منه الإباحة إلا في آخر حياته، مما قلل من رجوع الصحابة إلى أهل الكتاب في التفسير وفي إطار جد ضيق¹.

المفسرون من الصحابة :

أشهر المفسرين من الصحابة . كما نقل السيوطي . هم الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أجمعين.

وهناك من تكلم في التفسير من الصحابة كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وعائشة رضي الله عنهم².

قيمة التفسير المروي عن الصحابة

ذكر الحاكم في المستدرک أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي له حكم المرفوع، وعزا هذا القول إلى الشيخين، إلا أن ابن الصلاح والنووي قيذا هذا بما لا مجال فيه للرأي أو نحو ذلك،

¹ . انظر الذهبي ، التفسير والمفسرون، ص: 37 . 52. بتصرف.

² . السيوطي ، الإتيان ص: 877.

كما قال ابن كثير: إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدري بذلك¹.

مميزات التفسير في هذه المرحلة

- 1 . لم يفسر القرآن جميعه، بل ما غمض منه فقط، وكان هذا الغموض يزداد كلما ابتعد الناس عن عصر التنزيل، وكلم قل عدد الصحابة.
- 2 . قلة الاختلاف فيما بينهم في فهم معانيه.
- 3 . كانوا كثيرا ما يكتفون بالمعنى الإجمالي، ويقتصرون على توضيح المعنى اللغوي أو سبب النزول ونحوه.
- 4 . ندرة الاستنباط العلمي للأحكام الفقهية من الآيات واختفاء الاختلاف المذهبي الذي ظهر فيما بعد.
- 5 . لم يدون شيء من التفسير في هذه المرحلة.
- 6 . أخذ التفسير في هذه المرحلة شكل الحديث في الرواية، بل كان فرعا عنه².

المرحلة الثانية للتفسير : التفسير في عصر التابعين

مدارس التفسير في عصر التابعين

فتح الله على المسلمين كثيرا من بلاد العالم، وحمل الصحابة ما معهم من العلم إلى هذه البلدان، وجلس إليهم كثيرا من التابعين، وبذلك تكونت مدارس في الفقه والحديث والتفسير، أساتذتها الصحابة وتلامذتها التابعون، واشتهرت بعض هذه المدارس بأساتذتها وتلامذتها وهي: **مدرسة التفسير بمكة**: قامت على ابن عباس، واشتهر من تلامذتها سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاوس بن كيسان، وعطاء بن أبي رباح. **مدرسة التفسير بالمدينة**: قامت على الصحابي أبي بن كعب، وأشهر تلامذتها من التابعين هم زيد بن أسلم وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي

¹ . انظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الثقافة ، الجزائر، 6/1.

² . محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، 97/1.

مدرسة التفسير بالعراق: قامت على عبد الله بن مسعود، وأشهر رجالها من التابعين علقمة بن قيس، والأسود بن يزيد، ومسروق ومرة الهمداني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي.

قيمة التفسير المروي عن التابعين

اختلف العلماء في حكم التفسير المروي عن التابعين هل هو من قبيل التفسير بالمأثور فيؤخذ به وجوباً إذا صح سنده، أم يعتبر من قبيل التفسير بالاجتهاد فيخضع للبحث والنظر، وخلاصة القول أنه إن كان من قبيل ما أجمع عليه التابعون وجب الأخذ به¹، وإن كان رأي فر د منهم أمكن الأخذ به أو رده بالبحث والنظر، وأغلب من ألف في التفسير بالمأثور من العلماء نقل كثيراً من أقوال التابعين في التفسير، ورد بعضها .

مميزات التفسير في هذه المرحلة

1. دخل في التفسير كثير من الإسرائيليات والنصرانيات لكثرة من دخل في الإسلام من أهل الكتاب، وتوسع التابعين في الأخذ عنهم.
2. ظل التفسير محتفظاً بطابع الرواية والتلقي، ولكن عن شخص بوجه خاص
3. بدأت تظهر في هذا العصر نواة الخلاف المذهبي، فنجد الحسن البصري قد فسر القرآن على إثبات القدر وتكفير من يكذب به مثلاً².
4. كثرة الخلاف بين التابعين في التفسير إذا قيس بما كان عليه الصحابة.

المرحلة الثالثة : التفسير في عصر التدوين

وتبدأ هذه المرحلة من أواخر عصر بني أمية وبداية عصر بني العباس، وقد مر التفسير من هذه الناحية التاريخية بخمس خطوات هي :

- الخطوة الأولى: حيث كان يتناقل بالرواية بين الصحابة والتابعين
- الخطوة الثانية : بداية التدوين مع بداية تدوين الحديث النبوي .

¹ . ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : 369/13.

² . التفسير والمفسرون 131/1.

الخطوة الثالثة: انفصل فيها التفسير عن الحديث ووضع لكل آية من القرآن تفسيرها من الأثر موصول الإسناد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة.

الخطوة الرابعة: لم يتجاوز بها حدود التفسير بالمأثور ولكن تجاوز روايته بالإسناد طلباً للاختصار، فدخل الوضع في التفسير، واختلط الصحيح بالعليل.

الخطوة الخامسة: وهي أوسع الخطى وأفسحها امتدت من العصر العباسي إلى يومنا هذا، وفيها امتزج الفهم العقلي بالتفسير النقلي، وكان ذلك على تدرج ابتدأ بالمباحث اللغوية والنحوية والبلاغية إلى القضايا الكلامية والفلسفة والأصولية والتصوف ثم العلوم الرياضية والكونية، ثم كان آخرها العلوم الإنسانية في العصر الحديث، حتى أصبحت حركة التفسير تمثل المسحة الثقافية والعلمية للمسلمين عب العصور والمرآة العاكسة لتطور الحياة العقلية عندهم¹.

ظهور نزعة التفسير الموضوعي

وإلى جانب هذا كله كانت هناك نزعة تجديدية في التفسير تسير سيرا بطيئاً، وهي نزعة التفسير الموضوعي، أو التفسير في جانب واحد أو موضوع معين من القرآن، فألفوا في قصص القرآن وجدله وناسخه ومنسوخه وأمثاله وأقسامه ومتشابهه، وغريبه ومبهمات، وأشباهه ونظائره وأسباب نزوله وغيرها، إلى أن جاء العصر الحديث فازدادت الحاجة إلى هذا النوع من التفسير لما صارت تخضع له هذه الدراسات من المنهجية والتخصص والتقصي والتدقيق في البحث حتى صار يعرف بتفسير العصر.

¹ . التفسير والمفسرون 140/1.

التفسير بالمأثور

تعريفه :

يراد بالتفسير المأثور ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم¹.

اللون الشخصي للتفسير بالمأثور :

هذه مسألة بالغة الأهمية، وذلك أن طالب العلم قد يحسب أن التفسير بالمأثور لا تدخله النزعة الذاتية لأنه يقتصر على مجرد النقل والرواية، ولذلك نقول إذا كان الطابع الشخصي في كتب التفسير بالرأي يبدو جليا واضحا للقارئ، فإننا لا نكاد نلمحه للوهلة الأولى على هذا النحو من الجلاء والوضوح بالنسبة للتفسير بالمأثور، ونستطيع أن نتبع آثار هذا اللون الشخصي للتفسير بالمأثور فيما يأتي² :

أ . تخير المفسر من المرويات ما يراه متجها إلى معنى الآية ومتعلقا بها، وهو في كل ذلك لا يخلو من أن يكون متأثرا نفسيا وعقليا حينما يقبل رواية ويهتم بها ويجتهد في تصحيحها وتلميعها، أو حينما يرفض رواية أخرى، ويحرص على استبعاد صحتها ولا يرتاح إليها، ومثال ذلك ما فعله الإمام محمد عبده وهو يفسر قوله تعالى: "وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول"³ فنراه يتخير من الروايات الكثيرة عند الطبري في وصف الطير الأبابيل بأنها جراثيم، وجعلهم كعصف مأكول معناه إصابتهم بمرض فتاك كمرض الجدري..

ب - التوسع والتفصيل أو الإيجاز والتقليل في نقل ما يتعلق ببدء الخلق والتكوين وتاريخ الإنسانية الأولى وغيرها .. فكان من وراء ذلك التفاوت بين المفسرين في نسبة النقل عن

¹ . المصدر السابق :152.

² . انظر الذهبي ، التفسير والمفسرون: 1.155.

³ . سورة الفيل: 3 . 5 .

الإسرائيليات والقصاص والأخبار، وليس من شك في أن هذا يمثل صورة عقلية وطابعا شخصيا لكل من يقبل هذه الروايات ويشغف بها، ويجتهد في تفسير بعض الآيات في ضوءها، وهو خلاف من يزهد في مثل هذه الأخبار ويضرب صفحا عنها.

ج. كما يبدو اللون الشخصي في التفسير بالمأثور في مدى معرفة المفسر بالرجال وقدرته على نقد الأسانيد، وتمييز المرويات المقبولة من المردودة، فمن كان راسخ القدم في فحص الآثار والأخبار جاء تفسيره نقيًا خاليا من المرويات الواهية والمتروكة، ومن كان قصير الباع في هذا الجانب كان حاطب ليل وكان تفسيره خليطا من الروايات المتفاوتة في القوة والضعف وربما غلب ضعيفها على صحيحها، ومن هنا وجب التنبيه على أن كتب التفسير بالمأثور وإن كانت مشتركة في النقل والرواية فهي متفاوتة من حيث تفاوت مؤلفيها في علم الرواية.

عيوب التفسير بالمأثور وأسبابها

على الرغم من كون التفسير بالمأثور هو المعول عليه، وهو المقدم على غيره ولا غنى عنه لكل طالب لتفسير القرآن الكريم، فإنه قد علقته به بعض العيوب والنقائص بفعل عوامل مختلفة، مما يجعل المفسر أما عقبات شاقة وهو يتعامل مع ذلك الكم الهائل من الروايات والأخبار وترتيبها وتمحيصها ووضعها في الموضوع اللائق بها، ومن هذه العيوب ما يأتي :

أ. كثرة الوضع في التفسير :

فقد نشأ الوضع في التفسير مع نشأته في الحديث، لأنهما كانا أول الأمر مزيجا في التأليف والرواية، فوجد في كل منهما الصحيح والحسن والضعيف والموضوع.

وترجع أسباب الوضع في التفسير إلى الأسباب نفسها في الحديث، ونذكر منها التعصب المذهبي والتناحر السياسي، والولع بالأخبار والقصاص، والترويج للبدع والأهواء والزندقة وغيرها من الأسباب المعروفة.

وكان من أثر هذا الوضع الذي دخل في التفسير المأثور أن ضاع كثير منه لما أحاط به من شكوك فقلل من الثقة به، على أنه ينبغي التنبيه إلى أن التفسير الموضوع لا يخلو من قيمة علمية . بخلاف الوضع في الحديث . لأنه عبارة عن اجتهاد لوضعه، فهو لا يبعد عن معنى

الآية في بعض الأحيان، وكل ما في الأمر أنه أراد رواجاً لتفسيره وقبولاً بين الناس، فهذا التفسير لا يخلو من قيمة علمية بطريقة أو بأخرى، وإن لم تكن له قيمة إسنادية، كما يرجع إليه في معرفة آراء الفرق وأرباب النحل وأهل الأهواء وغيرها من الاتجاهات.

ب . الإسرائيليات:

يقصد بالإسرائيليات ذلك اللون اليهودي النصراني الذي ذاع وشاع في كتب التفسير، وإنما سمي بالإسرائيليات من باب تغليب الغالب، لأن الجانب اليهودي هو الذي فشا وطغى وسيطر لشدة التصاق اليهود بالمسلمين منذ ظهور الإسلام.

ونحن إذا أجلنا النظر في التوراة والإنجيل نجد أنهما قد اشتملا على بعض مما اشتمل عليه القرآن الكريم، وبخاصة ما كان له تعلق بقصص الأنبياء عليهم السلام مع فارق هو الإجمال في القرآن والتفصيل في غيره، فكان المسلمون يقتبسون ممن أسلم من أهل الكتاب ما يرون أنه شارح لهذا الإجمال وموضح لما فيه من غموض وإبهام، غير أن الصحابة رضي الله عنهم لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء، ولم يقبلوا منهم كل شيء، بل كانوا يتوقفون امتثالاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقلوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم)¹

كما أنهم لم يسألوا عن شيء يتعلق بالعقيدة والأحكام، بل كانوا يسألونهم عما كان في زمن أنبيائهم من الوقائع والأخبار للوقوف على ما فيها من المواعظ والعبر، أما التابعون فقد توسعوا في الأخذ عن أهل الكتاب، ويرجع ذلك إلى كثرة من دخل في الإسلام من أهل الكتاب، ومحاولة إيجاد تفصيل وتفسير لكل غموض ناتج عن الإجمال في مواضع القرآن الكريم.

قيمة ما يروى من الإسرائيليات

الأخبار الإسرائيلية ثلاثة أقسام:

- قسم نعلم صحته بما جاء في السنة الصحيحة كتعيين اسم الخضر صاحب موسى عليه السلام، أو له شاهد من الشرع يقويه فهذا نقبله.

¹ . رواه البخاري في كتاب التفسير .

- قسم يعلم كذبه بمخالفته لشرعنا وللعقل، وهذا لا يصح قبوله أو روايته إلا على سبيل التعريف به وبيان بطلانه، وهو ما يفعله بعض من المفسرين كالطبري وابن كثير وغيره .
- قسم مسكوت عنه لا هو من قبيل الأول ولا الثاني، وهذا نتوقف فيه مع جواز روايته، وهذا القسم أغلبه مما لا فائدة فيه في أمور الدين¹.

وعليه فإن على المفسر أن يكون يقظا بالغ الحيلة ليستخلص من هذه المروييات ما يناسب روح القرآن ويتفق مع العقل والنقل، وخير له أن يضرب صفحا عن هذه الإسرائيليات جملة، لأنها في الغالب مما يصرف عن مواضع العبرة والعظة في القصة القرآنية.

أقطاب الروايات الإسرائيلية

إن المتصفح لكتب التفسير بالمأثور يلحظ أن أغلب ما يروى من الإسرائيليات يدور على أربعة أشخاص هم عبد الله بن سلام وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الملك بن جريج، وقد اختلفت فيهم الأقوال بين التعديل والتحريح، مما يوجب علينا الحديث عنهم ولو بإيجاز لمعرفة مبلغهم من العلم والعدالة.

1 . عبد الله بن سلام

هو أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي الأنصاري، أسلم عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وأقام الحجة على قومه في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم (قصة إسلامه في صحيح البخاري . كتاب الهجرة) نزل فيه بعض القرآن كقوله تعالى : "قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين"² وقوله تعالى أيضا: "قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب"³ روى عنه إبنه يوسف ومحمد كما روى عنه عوف بن مالك، وأبو هريرة، وعطاء بن يسار، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس، ووقف مدافعا عن عثمان عندما ثار عليه قاتلوه، كان أعلم اليهود وسيدهم، ولم حضر معاد بن جبل الموت قال : إن العلم عند أربعة

1 . انظر مقدمة تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

2 . سورة الأحقاف : 9.

3 . سورة الرعد : 44.

رهط: عويمر أبي الدرداء، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سلام، فأبني سمعت رسول الله يقول إنه عاشر عشرة في الجنة .
لهذا كله لا نستطيع أن نتهم الرجل في ثقته أو علمه بعدما علمنا أنه من خيار الصحابة
وبعدما نزل فيه من القرءان.

2 . كعب الأحبار

هو أبو إسحاق، كعب بن ماتع الحميري، المعروف بكعب الأحبار، أصله منم يهود اليمن، أسلم في خلافة عمر على الأشهر انتقل إلى المدينة وغزا الروم في خلافة عمر، ثم تحول في خلافة عثمان إلى الشام فسكنها إلى أن مات بجمص سنة 32هـ عن مائة وأربعين سنة، كان ابن عباس وأبو هريرة على جلاله قدرهما وغيرهما من الصحابة يأخذون عنه ويروون عنه، كما أخرج له الإمام مسلم في كتاب الإيمان، وكذا أبو داود والترمذي والنسائي، مما يدل على ثقته وعدالته.

3 . وهب بن منبه

هو أبو عبد الله، وهب بن منبه، اليماني الصنعاني، صاحب القصص والأخبار، من خيار علماء التابعين، ولد سنة :34هـ في خلافة عثمان، وتوفي سنة 110 أو 114هـ روى عن كبار الصحابة منهم أبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن عباس وابن عمر، وأخرج له البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأبو داود.

مبلغه من العلم والعدالة : كان وهب بن منبه واسع العلم كثير الاطلاع على الكتب القديمة والقصص والأخبار، قال الذهبي : كان ثقة عدلا كثير النقل عن كتب الإسرائيليات، كما وثقه أبو زرعة والنسائي وابن حجر وغيرهم، وولاه عمر بن عبد العزيز قضاء صنعاء.

4 . عبد الملك بن جريج

هو أبو خالد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، أصله رومي نصراني، كان من علماء مكة ومحدثيهم وهو من أول من ألف الكتب في الحجاز، وهو قطب الروايات الإسرائيلية في عهد التابعين، كثيرا ما يعتمد الطبري في الآيات التي نزلت في النصارى، روى عن أبيه وعن عطاء بن أبي رباح وزيد بن أسلم، والزهري وغيرهم، كما روى عنه إبنه عبد العزيز ومحمد، والأوزاعي والليث بن سعد، ولد سنة 80هـ وتوفي سنة 150هـ وقيل 159هـ.

ويتبين من خلال تراجم هؤلاء الأقطاب أنهم كانوا على قدر من العلم والعدالة، ولكن ينبغي التنبيه إلى الفرق الواضح بين ما يرويه عنهم أهل العلم من المفسرين والمحدثين وبين ما يرويه عنهم الإخباريون والقصاص الذين يتساهلون في النقل ويخلطون الغث بالسمين، فإن أغلب ما نسبه إليهم القصاص والوعاظ قد لا تصح نسبته إليهم أصلا، كما قد لا يخلو من الزيادة والنقصان والتحريف والتزييف.

ج . حذف الإسناد:

حذف الإسناد هو السبب الثالث الذي يرجع إليه الضعف في التفسير بالمأثور، فبعد أن كان التفسير في عصر الصحابة والتابعين يروى بأسانيدهم جاءت مرحلة ما بعدهم، فنهض قوم للتفسير، فحذفوا الأسانيد طلبا للاختصار، ونقلوا أقوالا غير معزوة إلى ناقليها، كما لم يتحروا الصحة فيما ينقلون، وبذلك التبس الصحيح بالعليل، واختلط الضعيف بالقوي.

غير أن هذه الأسباب لا تقلل من قيمة التفسير بالمأثور، كما أن الكتب المؤلفة فيه ليست كلها في مقام واحد، بل هناك الكتب التي التزم مؤلفوها ذكر الأسانيد، وإن نقلوا أخبارا ضعيفة السند فإن لهم عذرهم لأن أهل العلم يومئذ لم تكن تخفى عليهم أحوال الرجال، وفي ذلك يروي الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن سيرين أنه قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم.

وفيما يلي تعريف موجز بأشهر المؤلفات في التفسير بالمأثور ومناهج مؤلفيها فيها.

1 . جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (224 . 310هـ)

التعريف بالمؤلف

هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، من مشاهير المفسرين والمؤرخين، وعالم فقيه أصولي، عالم بالقراءات القرآنية، لغوي، نحوي، محقق، ولد في آمل طبرستان وبها نشأ وحفظ القرآن صغيراً، وطوف في الأقاليم طلباً للعلم، ثم استقر في بغداد بعد أن برع في علوم كثيرة، كان شافعي المذهب، ثم مال إلى الاجتهاد في آخر حياته فأسس مذهبه الفقهي بعد بحث طويل، وصار له أتباع، ولكن لم يكتب له البقاء، ونسب إلى التشيع والوضع للروافض، ولكن أهل البحث والتحقيق كشفوا هذه الفرية وردوها، وقالوا إن الطبري المتهم بالتشيع هو محمد بن جرير بن رستم الطبري الرافضي، وليس الطبري المفسر، ألف كتابه في التفسير في حجم موسوعة ضخمة تقع في ثلاثين ألف ورقة ثم قال لطلبته : هل تنشطون لكتاب في التفسير في ثلاثين ألف ورقة، فعجبوا وقالوا : سبحان الله، تفنى الأعمار دون ذلك، فاختصره في ثلاثة آلاف ورقة، وأملاه على طلبته في عشر سنوات (280 . 289هـ) قال عنه النووي : (كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله) وقال أبو حامد الإسفراييني : (لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً)¹.

التعريف بالتفسير ومنهج مؤلفه فيه

يعتبر تفسير الطبري من أشهر التفاسير، حتى قيل : كل من جاء بعد الطبري من المفسرين فهو عالية عليه، فهو المرجع الأول عند الذين عنوا بالتفسير النقلي، ولا غنى عنه للذين يهتمون بالتفسير العقلي، لما فيه من الاستنباط وتوجيه الأقوال والترجيح بينها اعتماداً على النظر العقلي، ولذلك قال الإمام النووي : أجمعت الأمة على أنه لم يؤلف مثل تفسير الطبري، ونستطيع أن نلخص معالم منهج الطبري في تفسيره في العناصر الآتية:

¹ . انظر في ترجمة الطبري : تاريخ بغداد :2\121 . وطبقات المفسرين للسيوطي 30 . وطبقات القراء للذهبي :1\213 ولسان الميزان : 5\100 . وطبقات الشافعية للسبكي :3\120 .

- 1 . يعتمد التفسير النقلي ويقدمه على غيره، ولكنه ليس حاطب ليل، فهو إذ ينقل الأقوال فإنه يسندها . ومن أسند لك فقد حملك البحث عن رجال السند . ومع ذلك فإن الطبري يقف أحيانا من السند موقف الناقد البصير فيجرح ويعدل، ويرد الرواية التي لا يثق بها.
- 2 . يذم التفسير بالرأي إذا كان في التفسير بالرأي ما يغني عنه.
- 3 . يكثر من الروايات الإسرائيلية، ولعل هذا راجع إلى ما تأثر به من الروايات التاريخية التي عاجلها في مؤلفاته التاريخية، وهو كثيرا ما يتعقبها بالفحص والنقد، ومع ذلك يبقى كتابه بحاجة إلى غربة ثانية لتخليصه من القصص والأخبار التي لا تثبت أمام النقد العلمي .
- 4 . كان الطبري قليل الاستطراد، غير مولع بما لا فائدة فيه، ففي تفسير قوله تعالى: "هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء .."¹ ينقل ما ورد من الروايات في نوع الطعام المنزل، ثم يعقب قائلا: (وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فأن يقال كان عليها مأكول، وجائز أن يكون سمكا وخبزا، وجائز أن يكون ثمرا من الجنة، وغير نافع العلم به، وغير ضار الجهل به إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل.)
- 5 . يحتكم إلى المعروف من كلام العرب، فينقل الاستعمالات اللغوية بجانب النقول المأثورة، ويرأها مرجعا موثوقا به في توضيح مشكل القرءان وغريبه، إلا أنه يرى أن كلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك، ومن هنا فهو يرجع إلى الشواهد من الشعر القديم بشكل واسع.
- 6 . يتعرض كثيرا للمذاهب النحوية ويوجه الأقوال تارة على المذهب البصري، وتارة على المذهب الكوفي مما يدل على تبحره في علوم اللغة وفنونها .
- 7 . يهتم بالقضايا الفقهية عند تفسيره لآيات الأحكام فيعالج أقوال العلماء ومذاهبهم، ويخلص من ذلك كله برأي يختاره لنفسه، ويرجح بالأدلة العلمية المقنعة، ومثال ذلك ما جاء في تفسير

¹ . سورة المائدة ، الآية : 113 .

قوله تعالى: "والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون"¹ حيث عرض الأقوال المختلفة في حكم أكل لحوم الخيل، ثم رجح جواز أكلها بالأدلة الموضوعية .

8 . وإذا مر بآيات التوحيد والعقائد كان يعرض لبعض القضايا الكلامية إذا دعت الحاجة إلى ذلك بما يشهد له أنه كان عالما محيطا بأمر العقيدة عند أهل السنة والفرق الكلامية الأخرى، فلم يقف كمفسر موقفا بعيدا عن مسائل النزاع العقدي في عصره، بل شارك في ذلك بنصيب وافر، مع حرصه على إظهار تميزه بالمذهب السني من خلال كثرة ردوده على مختلف الفرق الكلامية وتعقبه لآرائهم .

والخلاصة أن ما جمعه ابن جرير في كتابه من أقوال المفسرين الذين تقدموا عليه، وما نقله عن مدرسة ابن عباس وابن مسعود وأبي بن كعب وعلي بن أبي طالب وغيرهم جعلت هذا الكتاب أعظم الكتب المؤلفة في التفسير بالمأثور، كما أن ما جاء في الكتاب من توجيهات لغوية وإعراب واستنباطات في نواح مختلفة ومتعددة وترجيح لبعض الأقوال على بعض، كان نقطة تحول في التفسير، ونواة لما وجد بعده من التفسير بالرأي، كما كان مظهدا من مظاهر الروح العلمية السائدة في عصره.

2 . بحر العلوم

للسمرقندي (... 373هـ)

التعريف بالمؤلف

نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، أبو الليث، الملقب بإمام الهدى، مفسر، محدث، صوفي، فقيه حنفي، صاحب التصانيف المشهورة وفي مقدمتها تفسيره "بحر العلوم" ظل تفسيره مخطوطا محفوظا في مكتبة الأزهر في ثلاثة مجلدات كبار، وقد طبع مؤخرا سنة: 1415هـ كما قام بتحريج أحاديثه الشيخ زين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفي سنة 854هـ مما زاد من قيمته وفائدته² .

¹ . سورة النحل : 5 .

² . حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ص: 441 . ومعجم المفسرين: 700/2 .

منهج السمرقندي في تفسيره

ابتدأ تفسيره بمقدمة تكلم فيها عن طلب التفسير وفضله وحرمة التفسير بالرأي لمن لم يعرف وجوه اللغة وأحوال التنزيل مستدلاً على ذلك بأقوال السلف، ثم شرع بعد ذلك في تفسيره¹.

والقارئ لهذا التفسير يلاحظ أنه يسوق الروايات عن الصحابة والتابعين ولكن ينذر نقله للأسانيد، ويقل تعقيبه على الروايات والأخبار، وهو يعرض القراءات ولكن بقدر، ويحتكم إلى اللغة أحياناً، ويفسر القراءان بالقراءان أحياناً أخرى، وكثيراً ما يروي عن القصص الإسرائيلي وعن الضعفاء من دون تعقيب منه على ما يرويه، ويعرض لموهم الاختلاف والتناقض ويزيل هذا الإيهام، وبالجملة فالكتاب قيم في ذاته، جمع فيه صاحبه بين التفسير بالرواية والتفسير بالدراية، إلا أن الجانب النقلي هو الأغلب والأظهر.

3. الكشف والبيان عن تفسير القراءان

للتعلبي (.... 427هـ)

التعريف بالمؤلف

هو أبو إسحاق، أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، المقرئ، الحافظ، المفسر، كان عارفاً باللغة، متين الديانة، اختلفوا في توثيقه وجرحه، له عدة مؤلفات منها كتاب "العرائس في قصص الأنبياء" جمع فيه أخبار الأنبياء من القراءان والإسرائيليات. قال ابن خلكان: كان أوحد زمانه في علم التفسير، وصنف "التفسير الكبير" الذي فاق غيره من التفاسير².

وقال الذهبي: الإمام الحافظ العلامة شيخ التفسير، له كتاب "التفسير الكبير"³.

¹ . السمرقندي ، بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، 35/1.

² . ابن خلكان ، وفيات الأعيان: 79/1.

³ . التيسير لمعرفة المشهور من أسانيد التفسير: 203.

وقال ابن كثير : وكان كثير الحديث واسع السماع، ولهذا يوجد في كتبه من الغرائب الشيء الكثير¹.

منهج الثعلبي في تفسيره

ابتدأ تفسيره بمقدمة تحدث فيها عن مناهج من سبقوه في التأليف في التفسير، مع التنبيه على محاسن ومساوئ هذه المؤلفات ثم قال: فاستخرت الله تعالى في تصنيف كتاب شامل مهذب، ملخص مفهوم منظوم، مستخرج من زهاء مائة كتاب مجموعات مسموعات.. ثم كشف عن منهجه فقال : وخرجت فيه الكلاسه على أربعة عشر نحواً: البسائط والمقدمات، والعدد والتنزلات، والقصص والوجوه والقراءات، والعلل والاحتجاجات، والعريية واللغات، والإعراب والموازنات، والتفسير والتأويلات، والمعاني والجهات، والغوامض والمشكلات، والأحكام والفقهيات، والحكم والإشارات، والفضائل والكرامات، والأخبار والمتعلقات² والحقيقة أن القارئ لهذا التفسير يستطيع أن يسجل الملاحظات الآتية :

1. اختصاره للأسانيد فيما نقل من أقاويل عن السلف، واكتفى بذكرها في مقدمة الكتاب.
2. يعرض للمسائل النحوية ويخوض فيها بتوسع ظاهر .
3. يعرض لشرح الغريب فيبين معاني الكلمات، مدلولها وأصولها وتصارينها، مستشهداً بالشعر من عصر الاحتجاج.
4. يتوسع في تفریع الأحكام الفقهية عند تفسيره لآيات الأحكام إلى درجة أنه يخرج عما يراد من الآية، فمثلاً عندما يفسر قوله تعالى : "يوصيكم الله في أولادكم .. فإنه يفيض في الكلام عن تركة الميت، ثم يقول بعد هذا فصل في بساط الآية، وفيه يتكلم عن نظام الميراث في الجاهلية وما تعلق به.

¹ ابن كثير ، البداية والنهاية:659/15.

² . الثعلبي، الكشف والبيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2002، 1/75.

5 . ومما يمتاز به هذا التفسير توسعه إلى حد كبير في نقل الإسرائيليات دون أن يعقب أو ينبه على شيء من ذلك رغم غرابته، مما يوحي بان الثعلبي كان مولعا بالأخبار والقصص إلى درجة كبيرة.

6 . كما وقع . كغيره من بعض المفسرين . في نقل الأحاديث الواهية والموضوعة، فروى في فضل كل سورة حديثا منسوباً لأبي بن كعب، كما اغتر بأحاديث كثيرة موضوعة على ألسنة الشيعة دون أن يشير إلى وضعها واختلاقها، مما يدل على قصر باعه في معرفة صحيح الأخبار وسقيمها، مما جعل ابن تيمية يقول فيه: (والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، وكان حاطب ليل، لكن فيه سلامة من البدع وإن ذكرها تقليداً لغيره..). ومن يقرأ تفسير الثعلبي يعلم أن ابن تيمية لم يتقول عليه، ولم يصفه إلا بما هو فيه.

ومن اللطائف أنه عاب في مقدمته لتفسيره جملة كبيرة من التفاسير المشهورة كتفسير إسحاق بن راهويه، وتفسير الطبري الذي هو درة التفاسير، ثم حشر في تفسيره الضعيف والموضوع والإسرائيليات الغريبة والبعيدة عن الصواب¹.

4 . معالم التنزيل

للبغوي (ت: 510هـ)

التعريف بالمؤلف:

هو أبو محمد، الحسين بن مسعود بن محمد، المعروف بالفراء البغوي، الفقيه الشافعي، المحدث، المفسر، الملقب بمحبي السنة، وركن الدين، وصاحب التصانيف المشهورة كشرح السنة ومصابيح السنن، والتهذيب في الفقه وغيرها .

منهجه في التفسير

يتضح منهج البغوي في تفسيره من خلال مقدمة كتابه، وكذا مقالات أهل العلم فيه، فذكر في مقمته تفسيره أسانيداً إلى كل من يروي عنهم، وتحريه الصحة فيما ينقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وإعراضه عن المناكير وما لا تعلق له بالتفسير، ويتطرق أحياناً للصناعة النحوية،

¹ . التيسير لمعرفة المشهور من أسانيد التفسير: 202.

ويذكر أحيانا بعض الروايات الإسرائيلية دون أن يعقب عليها، وينقل الخلاف عن السلف في التفسير دون ترجيح منه، ولا يضعف رواية أو يصحح أخرى.
قال فيه ابن تيمية: والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعية والآراء المبتدعة .
وقال فيه الكتاني : وقد يوجد فيه . أي تفسيره . من المعاني والحكايات ما يحكم بضعفه أو وضعه.

وعلى العموم فالكتاب في جملة أحسن وأسلم من كثير من كتب التفسير بالمأثور، وله قبول بين أهل العلم، وقد طبع بهامش تفسير ابن كثير، كما طبع بهامش تفسير الخازن، ثم طبع وحده.

5. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي (ت: 546هـ)

التعريف بالمؤلف

هو أبو محمد، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المغربي، الغرناطي، الحافظ، القاضي، ولد سنة: 481هـ ونشأ في بيت علم وفضل، ورحل في طلب العلم، كان على قدر كبير من العلم بالفقه والحديث والتفسير، وكان لغويا أديبا شاعرا، سنيا فاضلا، وصفه أبو حيان بأنه أجل من صنف في التفسير، وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير.

منهجه في التفسير

إن كتاب المحرر الوجيز من التفاسير التي نالت مكانتها بين أهل العلم، وقد لخصه مؤلفه . كما قال ابن خلدون في المقدمة . من كتب التفسير كلها، وتحرى ما هو أقرب إلى الصواب منها¹.

والحق أن ابن عطية أحسن في هذا التفسير وأبدع حتى طار صيته كل مطار، وصار أصدق شاهد لمؤلفه بإمامته في كثير من العلوم كاللغة والفقه والحديث وغيرها، ومنهجه في التفسير أنه

¹ . عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة، دار الكتب العلمية ، لبنان، ط1 ، 1993 ، ص: 349.

يذكر الآية ثم يفسرها بعبارة سهلة عذبة، يورد من التفسير بالمأثور ويختار منه من غير إكثار، وينقل عن ابن جرير ويناقش المنقول عنه أحيانا، وهو كثير الشواهد اللغوية والشعرية والنحوية، ويتعرض للقراءات وينزل عليها المعاني المختلفة.

قال عنه أبو حيان: وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشري أخص وأغوص¹.

وقال فيه ابن تيمية: وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري وأصح نقلا وبجثا، وأبعد عن البدعة وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير. وقد ظل تفسير ابن عطية مرجعا أساسيا لأغلب من جاء بعده من المفسرين مثل القرطبي، وأبي حيان الأندلسي، وابن كثير، وعبد الرحمن الثعالبي، وغيرهم.

وعلى جلالة هذا التفسير فقد ظل مخطوطا إلى عهد قريب، ولم يتم تحقيقه وطبعه إلا في السنوات الأخيرة على يد أساتذة باحثين بجامعة الرباط بالمغرب، وذلك بأمر من الملك الحسن الثاني، فطبع في خمسة عشر مجلدا متوسط الحجم، ثم ظهرت له طبعات لاحقة.

6. تفسير القراءان العظيم

لابن كثير (ت: 774هـ)

التعريف بالمؤلف

هو الإمام الحافظ، عماد الدين، أبو الفداء، إسماعيل بن كثير الدمشقي، الشافعي، سمع من الأمدي، وابن عساكر، والمزي، كما صحب ابن تيمية وأخذ عنه وتأثر به، فكان من أشهر تلاميذه، وامتحن بسببه، كان على مبلغ كبير من العلم، وانتهت إليه الرياسة في التفسير والحديث والتاريخ والفقه، اشتهرت كتبه في حياته كالسيرة النبوية والبداية والنهاية في التاريخ، وتفسيره شاهد له بسعة علمه ووفرتة².

منهجه في التفسير

¹ . أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، دار إحياء التراث العربي، ط1 ، 2002م 15/1.
² . انظر ترجمته في الدرر الكامنة 399/1، والبدر الطالع: 153/1، وهدية العارفين بأسماء المؤلفين: 215/1.

كان تفسير ابن كثير من أشهر ما دون في التفسير بالمأثور، ولعله يأتي في الدرجة الثانية بعد تفسير الطبري من حيث الشهرة والانتشار .

قدم له مؤلفه بمقدمة طويلة هامة، تعرض فيها لأصول التفسير وقواعده، ولخص أغلبها من مقدمة شيخه ابن تيمية في أصول التفسير، وطريقته في التفسير أنه يذكر الآية ثم يفسرها بعبارة سهلة موجزة، وهو شديد العناية بتفسير القراء بالقراء، كما أن هذا الكتاب من أكثر ما عرف من كتب التفسير سردا للآيات المناسبة في المعنى الواحد، وبعد أن يفرغ من هذا يشرع في سرد الأحاديث المرفوعة بأسانيدھا مع بيان درجتها، ثم يتبع هذا بأقوال الصحابة والتابعين ومن يليهم من أئمة السلف، وكثيرا ما نجد ابن كثير ينقل عن الطبري وابن عطية وغيرهما .
ومما امتاز به ابن كثير في تفسيره هذا أنه ينبه إلى ما في التفسير بالمأثور من المنكرات والموضوعات والإسرائيليات، ويحذر منها ويזהد فيها، كما يتوسع أحيانا في تفسير آيات الأحكام بما يشهد له بتفوقه الفقهي، وبالجملة فإن هذا التفسير من خير ما ألف في التفسير بالمأثور.

7 . الجواهر الحسان في تفسير القراء

لعبد الرحمن الثعالبي (ت: 885هـ)

التعريف بالمؤلف

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المالكي، الإمام الفاضل العامل، الزاهد الصوفي الورع، رحل إلى المشرق لطلب العلم فدامت رحلته عشرين سنة، طوف الأقطار والأقاليم، فجمع علما وفيرا، وعرف بكثرة شيوخه وتنوع مؤلفاته التي تربو عن التسعين مؤلفا وإن غلب عليه الشرح والتهديب والتلخيص لتراث من سبقه وهو ما تميزت به الحركة العلمية في عصره، وكان أشهر مصنفاة تفسير الجواهر الحسان في تفسير القراء الذي لخصه من مجموعة من التفاسير بأبسط وأوضح عبارة ليكون عوناً وزادا لطلبته، توفي عن عمر يناهز

التسعين سنة ودفن بمدينة الجزائر في مقبرة القصبة، وهو معروف في التراث الشعبي الجزائري بالولي الصالح، فكان قبره ولا يزال مزارا للتبرك والتوسل به من الدهماء من الناس¹.

منهجه في التفسير

وقد أبان الثعالبي عن منهجه في مقدمة تفسيره فقال: (وقد ضمنته بحمد الله المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية، وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة وثقات أعلام هذه الأمة حسبما رأيته أو رويته عن الأثبات، وذلك قريب من مائة تأليف.. وكل من نقلت عنه من المفسرين شيئا فمن تأليفه نقلت وعلى لفظ صاحبه عولت.. وبالجملة فكتابي هذا محشو بنفائس الحكم وجواهر السنن الصحيحة والحسان ..)² ثم ذكر مقدمة طويلة ضمنها شيئا من أصول التفسير وعلوم القرآن، وفي أغلب ما تقدم يعتمد على تفسير ابن عطية وينقل عنه حرفين أحيانا أخرى.

ومن هنا يتضح أن الثعالبي في هذا التفسير ليس له إلا التلخيص والجمع والترتيب والتهذيب، وأثر فكر ضئيل.

والقارئ لهذا التفسير يلاحظ عليه أنه من التفاسير التي تعتمد على النقل والأثر، إلا أنه اصطبغ من جهة أخرى بصبغة التفسير الإشاري .

وهو قليل النقل للأخبار الموضوعية والإسرائيليات، وإن نقل شيئا منها تعقبها بالنقد والتضعيف.

وجملة القول أن هذا التفسير لا يخلو من فائدة على شدة اختصاره، كما أنه لا يخلو بالمقابل من آراء معلولة ومردودة كان ناقلا لها عمن سبقه، وقد طبع مرتين بالجزائر، وهو معروف ومتداول بين طلبة العلم.

¹ . انظر ترجمته في : عادل نويهض : معجم اعلام الجزائر:90، والحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف: 67/1.

² . عبد الرحمن الثعالبي، الجواهر الحسان، دار إحياء التراث العربي، ط1 ، 1997، 118/1.

8 . الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي (849 . 911هـ)

التعريف بالمؤلف

هو الحافظ جلال الدين أبو الفضل، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي، المسند المحقق، صاحب المصنفات الفائقة، حفظ القرآن وله ثمان سنين، كما حفظ كثيرا من المتون وحاز مختلف العلوم والفنون، وقد أحصى مؤلفاته تلميذه أحمد بن نصر الداودي فبلغ بها ما يزيد عن خمسمائة مؤلف، كان أعلم زمانه بعلوم الحديث والفقه واللغة والتفسير وغيره من العلوم، وكان معتدا بنفسه من غير اغترار، وقد ذكر في مطلع ألفيته في الحديث أنه مجدد عصره لأنه لم يكن له منافس من أقرانه يومئذ¹.

التعريف بهذا التفسير ومنهج مؤلفه فيه

وضع السيوطي كتابين في التفسير أولهما كتاب "مجمع البحرين ومطلع البدرين" يشبه في منهجه تفسير ابن جرير الطبري، وهو الكتاب الذي وصفه بقوله: (وقد شرعت في تفسير جامع لجميع ما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة، والأقوال المعقولة، والاستنباطات والإشارات، والأعاريب واللغات، ونكت البلاغة ومحاسن البدائع وغير ذلك، بحيث لا يحتاج معه إلى غيره أصلا، وسميته بمجمع البحرين ومطلع البدرين، وهذا الذي جعلت . يعني كتاب الإتيقان . مقدمة له، غير أننا لا ندري إن كان السيوطي قد أتم هذه الأمانة، وقد ضاع الكتاب فلم يصل إلينا، أم أنها أمانة لم تتم.

أما كتابه الثاني في التفسير فهو "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" فهو الكتاب الذي قال فيه في نهاية "الإتيقان" :وقد جمعت كتابا مسندا فيه تفاسير النبي صلى الله عليه وسلم فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف، وقد تم والله الحمد في أربع مجلدات، وسميته "ترجمان القرآن"².

¹ . انظر في ترجمته: الضوء اللامع: 65/4، والبدر الطالع: 328/1، ومعجم المفسرين: 264/1.

² . الإتيقان في علوم القرآن ص: 885.

ثم قال في مقدمة الدر المنثور: (.. وبعد، فلما ألفت كتاب ترجمان القرآن، وهو التفسير المسند عن رسول الله ص، وتم بحمد الله في مجلدات، وكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرجة منها واردات، رأيت قصور المهم عن تحصيله، ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الأسانيد وتطويله، فلخص منه هذا المختصر مقتصرًا فيه على متن الأثر، مصدرًا بالعزو والتخريج إلى كل كتاب معتبر، وسميته بالدر المنثور في التفسير بالمأثور¹)
والسيوطي مع جلاله قدره ووفرة علمه مغرم بالجمع وكثرة الرواية، فلم يتحرر الصحة فيما جمع في هذا التفسير، فالكتاب يحتاج إلى غريبة ليتميز غثه من سمينه، وكتاب الدر المنثور هو التفسير الوحيد الذي اقتصر فيه مؤلفه على نقل التفسير المأثور من بين هذه الكتب التي تكلمنا عنها، فلم يخلط بالروايات التي نقلها شيئًا من عمل الرأي كما فعل غيره، والكتاب مطبوع في ست مجلدات ومتداول بين طلبة العلم.

¹ . جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ط 1 ، 2003 ، 3/1.

التفسير بالرأي وما يتعلق به

معنى التفسير بالرأي :

يطلق الرأي على الاعتقاد، والاجتهاد، والقياس، ومنه أصحاب الرأي أي أصحاب القياس، والمراد بالرأي هنا الاجتهاد، وعليه فالتفسير بالرأي هنا عبارة عن التفسير بالاجتهاد، بعد أن يتحقق المجتهد بشروط المفسر المنصوص عليها عند أهل العلم¹.

موقف العلماء من التفسير بالرأي:

انقسم أهل العلم إلى فريقين بين مانع ومجيز، وقد بنى كل فريق موقفه على جملة من الأدلة .

أدلة المانعين للتفسير بالرأي:

أولاً . قال المانعون: إن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم، لأنه مبني على الظن، ولا سبيل إلى القطع بصحة الاجتهاد، والله تعالى يقول: "ولا تقف ما ليس لك به علم" سورة الإسراء:36

ورد المجيزون بأن الظن نوع من العلم، إذ هو إدراك الطرف الراجح، والظن كاف إذا غاب المستند اليقيني أي النص.

ثانياً . استدل المانعون بقوله تعالى: "وأزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم.." ² ورد المجيزون بأن هذا صحيح ولكن فيما ثبت بيانه عنه صلى الله عليه وسلم فهو يغني عن غيره.

ثالثاً . واستدل المانعون بما رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما : من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار). وأجاب المجيزون بأن الحديث محمول على من قال في القرآن في مشكل القرآن ومتشابهه، أو من قال برأيه الذي يغلب عليه الهوى والمذهب الفاسد، أو يقول برأيه دون أن يعرج على المأثور من التفسير .

رابعاً . كما استدل المانعون بما ثبت عن السلف من الصحابة والتابعين من التخرج من التفسير بالرأي . وأجاب المجيزون بأن من تخرج من السلف إنما كان من باب الورع والخشية كما أن

¹ . التفسير والمفسرون ص:255.

² . سورة النحل ، الآية :44.

إحجامهم كان مقيدا بما لم يعرفوا وجه الصواب فيه، كما أحجم من أحجم لوجود من يسد مسده في التبليغ، وإلا كانوا كاتمين للعلم.

أدلة المجيزين:

أولا . منها نصوص القرءان كقوله تعالى : " أفلا يتدبرون القرءان .. " وقوله تعالى : " ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم.. " ¹

ثانيا . لو كان التفسير بالرأي غير جائز لما كان الاجتهاد جائزا، وهذا بين البطلان، لأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحا لأهله إلى يوم القيامة .

ثالثا . ومنه ما ثبت عن كثير من الصحابة من اجتهاد في التفسير، واختلاف وجهات نظرهم في ذلك.

رابعا . ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم لابن عباس (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) فلو كان التفسير مقصورا على النقل والسماع لما كان من فائدة في تخصيصه بهذا الدعاء.

تحرير موضع الاختلاف:

ونحن إذا أخذنا بظاهر رأي الفريقين اعتبرنا كلا القولين فيهما غلو وإفراط، ولكن يمكن دفع هذا التعارض المتبادر من ظاهر القولين بأن الذين منعوا التفسير بالاجتهاد إنما فعلوا لقطع الطريق أمام التفسير بالرأي المذموم بكل ألوانه ودوافعه، وإن الذين أجازوا التفسير بالرأي إنما أجازوا ذلك لمن استجمع شروطه، كما أنهم لم يبيحوه على إطلاقه.

العلوم التي يحتاج إليها المفسر:

ذكر العلماء شروطا كثيرة يجب على كل من يشتغل بتفسير كتاب الله أن يحوز عليها، ومنها :

- 1 . اللغة (مدلول مفرداتها) والنحو والصرف..
- 2 . علوم البلاغة الثلاثة وهي علم المعاني، علم البيان، علم البديع
- 3 . علم التوحيد ويلحق به علم الكلام والمدارس الكلامية بما لها وما عليها والمذاهب والطوائف وآرائها وأصولها وغيرها.

¹ . سورة النساء ، الآية :83.

- 4 - العلم بأصول الشريعة ابتداءً بالفقه الإسلامي أصولاً وفروعاً وتاريخاً وتنظيراً.. ومناهج المجتهدين، ومواضع الإجماع وعلم الخلاف وما شابهها..
- 5 . علوم الحديث والرواية والقصص والأخبار وأسباب النزول والسير النبوية ونحوها ..
- 6 . علوم القرآن مثل المكي والمدني والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه ونحوها..
- 7 . علم القراءات أصولاً وفرشاً المتواتر والشاذ منها..
- 8 . الملكة أو الموهبة، وهو علم يورثه الله تعالى لمن يخلص ويعمل بما يعلم¹.

وهذه الشروط إنما هي لتحقيق أعلى مراتب التفسير، أما المعاني العامة التي يستشعر بها المسلم عظمة الله تعالى فقد يسرها الله لتكون قدراً مشتركاً بين عامة الناس لتقوم الحجة عليهم، لقوله تعالى: "ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر" وهذا القدر من الفهم هو المأمور به في الآيات التي تحث على تدبر القرآن الكريم والاتعاظ به عند تلاوته.

قال الإمام محمد عبده: (للتفسير مراتب، أدناها أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ويصرف النفس عن الشر، ويميل بها إلى الخير، وهذه هي التي قلنا إنها متيسرة لكل أحد، وأما المرتبة العليا فهي التي لا تتم إلا بشروط:

أحدها: فهم حقائق ألفاظ المفردة التي أودعها القرآن على المعاني التي كانت تراد بها زمن التنزيل، وهنا يجدر بالباحث أن يجمع ما تكرر من اللفظ الواحد في مواضع مختلفة كلفظ "الهداية" مثلاً التي وردت بأكثر من معنى في كتاب الله تعالى.

ثانيها: الأساليب: فينبغي أن يكون عنده من علم المعاني ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة لمعرفة وجوه الإعجاز ومستوى التحدي، وتذوق القرآن الكريم وبلاغته الفريدة، ومحاوله نقل ما أمكن من تلك الروعة البيانية للقارئ.

ثالثها: علم أحوال البشر، فقد أنزل الله تعالى الكتاب وجعله آخراً للكتب، وبين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعه، والسنن الإلهية في البشر، فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر، في أطوارهم وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم، من قوة وضعف وعز وذل،

¹ . السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن،ص: 864.

وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ويحتاج هذا إلى فنون وعلوم كثيرة كالتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع، إلى أن يقول: (أنا لا أدري من لا يعرف هذه العلوم كيف يفسر قوله تعالى: "كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.."¹ وهو لا يعرف أسباب وحدتهم وأسباب تفرقهم من بعد..)²

رابعها: العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن، فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائي أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم، وكيف انتقل بهم من مرحلة لأخرى حتى أنقذهم من ضلالة وعلمهم من جهالة، مع التركيز على إبراز الأساليب المتبعة في تزكية النفوس وتهذيبها .

خامسها: العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، فهم خير من فهم القرآن واستجاب له ونجح في العمل به، وقد شهد لهم القرآن الكريم بكل ذلك.

أمور يجب على المفسر أن يتجنبها

مما يجب على من يقدم على تفسير كتاب الله أن يتجنبه ما يأتي :

- 1 . التهجم على بيان مراد الله تعالى من كلامه مع الجهالة بقوانين اللغة وأصول الشريعة وغيرها من شروط المفسر، فمن تكلم في القرآن من غير حيازة هذه العلوم كان من القائلين على الله بغير علم وحق فيهم الوعيد المعلوم في النصوص المشهورة.
- 2 . الخوض فيما استأثر الله بعلمه، وذلك كالمتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، فليس للمفسر أن يتهجم على الغيب بعد أن جعله الله سرا من أسراره.
- 3 . السير مع الهوى، أو الاستحسان دون ضابط شرعي .
- 4 . التفسير المقرر للمذهب الفاسد، بان يجعل المذهب أصلا والتفسير تابعا له، فيحتال في التأويل حتى يصرفه إلى رأيه، ويرده إلى مذهبه وإن كان غاية في البعد والغرابة.

¹ . سورة البقرة ، الآية : 211.

² . أنظر مقدمة تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، لبنان ط2، 21/1.

5 - التفسير مع القطع بان مراد الله تعالى كذا وكذا، من غير دليل يقيني، وهذا منهي عنه شرعا لقوله تعالى: " وأن تقولوا على ما لا تعلمون"¹

أشهر كتب التفسير بالرأي

1 . مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للفخر الرازي (544 . 606 هـ)

التعريف بالمؤلف

هو أبو عبد الله محمد بن عمر، التميمي، الطبرستاني، الملقب بفخر الدين، من ذرية أبي بكر الصديق، ولد في الري وإليها نسبته رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان وأتقن علومها كثيرة وبرز فيها، وهو فريد عصره، ومتكلم زمانه، صاحب التصانيف المشهورة، لقب بشيخ الإسلام، له شهرة كبيرة في الوعظ كثير البكاء، كان يعظ باللسان العربي والعجمي، اشتهرت تصانيفه في حياته، فاشتغل الناس بها عن كتب المتقدمين، كان شافعيًا أشعريًا ناظر المعتزلة واشتغل بالتدريس، ثم انقطع في آخر حياته للوعظ فكان يحضر مجلسه الخاص والعام، رجع في آخر حياته عن اشتغاله بعلم الكلام ودعا إلى التمسك بطريقة القرآن في الحجاج والاستدلال، وله وصية في ذلك أملاها عند احتضاره فقال: (لقد اخترت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن، إنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله، ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذلك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك الحقائق العميقة ..) من أهم مؤلفاته المطالب العالية في علم الكلام، والبيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان، والمحصول في أصول الفقه وغيرها، ولكن شهرته ارتبطت بكتابه في التفسير².

التعريف بمنهج في التفسير

¹ . سورة الأعراف، الآية: 31.

² . انظر ترجمته في: الداودي، طبقات المفسرين: 2/214. وطبقات المفسرين للسيوطي: 39، ومعجم المفسرين: 2/296.

يقع هذا التفسير في أربعة عشر مجلدا من ثلاثين جزءا، إلا أن أصحاب التراجم يرون أن الفخر الرازي قد توفي قبل أن يتم تفسيره، واختلفوا فيمن أتمه، فابن حجر يرى في الدرر الكامنة أن الذي أتمه هو نجم الدين القموي (ت: 727هـ) وصاحب كشف الظنون يرى بأن قاضي القضاة شهاب الدين الدمشقي الخوئي (ت: 639هـ) هو الذي أكمل ما نقص منه¹، كما رجحوا أن يكون الرازي قد وصل في تفسيره إلى سورة الأنبياء، والقارئ لهذا التفسير لا يكاد يلاحظ فيه تفاوتاً في المسلك والمنهج، حتى إن القارئ لا يستطيع أن يميز بين الأصل والتكملة .

كما أن تفسير الرازي يحظى بشهرة واسعة بين العلماء لما يمتاز به عن غيره من كتب التفسير بالأبحاث الفياضة الواسعة في نواح شتى من المعارف منها :

- بيان المناسبات بين آيات القرآن وسوره.
- توسعه في ذكر العلوم الرياضية والفلسفية .
- اشتغاله بعلم الكلام، حيث يتتبع أقوال الفرق الكلامية فيتوسع في نقل آرائهم بأمانة حتى إنه ليبدل من الجهد في عرض آراء الخصوم ما لا يبذله من الجهد في الاستدلال لمذهبه السني .
- ثم إن الفخر الرازي لا يمر على آية من آيات الأحكام إلا ويذكر آراء الفقهاء ومذاهب الأمصار مع ترويجه لمذهبه الشافعي بالأدلة والبراهين .
- ويستطرد لذكر المسائل الأصولية والنحوية والبلاغية ولكن بشكل أقل من توسعه في العلوم الكونية .
- وتفسير الفخر الرازي بصفة عامة عبارة عن موسوعة لعلوم عصره الشرعية والعقلية، ولذلك قال فيه أبو حيان الأندلسي: (فيه كل شيء إلا التفسير)²

¹ . انظر كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ص: 447.

² . البحر المحيط: 12/1.

2. أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبضاوي (ت: 685 أو 691 هـ)

التعريف بالمؤلف

هو قاضي القضاة، ناصر الدين، أبو الخير، عبد الله بن عمر، البضاوي الشافعي، من بلاد فارس، عالم أذربيجان، صاحب المصنفات، قال الإمام السبكي: كان إماما مبرزاً نظاراً خيراً، صالحاً متعبداً من أشهر تصانيفه تفسيره المعروف بأنوار التنزيل قال فيه صاحب كشف الظنون: (وتفسيره هذا كتاب عظيم الشأن، غني عن البيان، لخص فيه من الكشاف ما يتعلق بالبيان والمعاني والإعراب، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات، وضم إليه ما ورى زناد فكره من الوجوه المعقولة والتصرفات المقبولة، فجلا رين الشك عن السريرة، وزاد في العلم بسطة وبصيرة)¹

التعريف بتفسيره:

هو تفسير متوسط الحجم، جمع فيه صاحبه بين التفسير بالأثر والتفسير بالنظر على مقتضى قواعد اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة على ما كان يراه من مذهب أهل السنة، ونقل كثيراً عن الكشاف مع ترك اعتزالاته، إلا أنه اغتر ببعض الأحاديث التي نقلها الزمخشري في فضل سور القرآن فنقلها في أواخر تفسيره لبعض السور، علماً بأن هذه الأحاديث باطلة في الأعم الغالب، وقد ضمنه إلى جانب ذلك نكتاً بارعة ولطائف رائعة واستنباطات دقيقة. وقد نص في مقدمة تفسيره أنه جمع بين التفسير المنقول عن الصحابة وأئمة السلف، وبين التفسير بالرأي الصحيح²، وكان يتعرض للمسائل اللغوية والإعرابية، وينقل عن أئمة اللغة من البصريين والكوفيين، ويرجح ما يراه أحق بالترجيح، ويقف عند آيات الأحكام، فينقل آراء المذاهب باختصار، كما يهتم بعرض القراءات القرآنية ويوجهها توجيهاً حسناً، والكتاب مطبوع ومتداول بين طلبة العلم.

¹ . انظر في ترجمته: كشف الظنون: 168، وطبقات المفسرين للداودي: 242/1، وطبقات الشافعية: 157/8.

² . انظر البضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت ص: 11.

3 . مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (... 701 أو 710 هـ)

التعريف بالمؤلف

هو أبو البركات، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي . نسبة إلى نسف من بلاد ما وراء النهر أو بلاد السند . أحد الزهاد المتأخرين والأئمة المعترين، عديم النظر في زمانه، رأسا في الفقه والأصول، بارعا في الحديث ومعانيه، بصيرا بكتاب الله تعالى، وصاحب المصنفات¹ .

التعريف بتفسيره

هو تفسير بين الوسط والطول، اختصره النسفي من تفسير الكشاف وأنوار التنزيل للبيضاوي، مع تجنبه ما في الكشاف من اعتزال وأحاديث متروكة وموضوعة، وجمع فيه صاحبه بين وجوه الإعراب والقراءات، كما يعرض للمذاهب الفقهية في آيات الأحكام دون توسع مع انتصاره لمذهبه الحنفي، وهو مقل من نقل الإسرائيليات، وربما نقلها أحيانا مع تعقبها والرد عليها وكشف زيفها، معولا فيه على آراء أهل السنة والجماعة.

4 . لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (687 . 741 هـ)

التعريف بالمؤلف

هو علاء الدين، أبو الحسن، علي بن محمد البغدادي الشافعي الصوفي، اشتهر بالخازن لأنه كان خازن كتب بدمشق، خلف كتبا جمّة منها شرح عمدة الأحكام، ومقبول المنقول في عشر مجلدات، جمع فيه بين مسند الشافعي وأحمد، والكتب الستة، والموطأ وسنن الدارقطني، ورتبه على الأبواب، ولكن شهرته كانت بتفسيره المعروف "لباب التأويل"² .

¹ . انظر في ترجمته: الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة: 2/ 225 وكشف الظنون: 1640، ومعجم المفسرين: 304/1.

² . الدرر الكامنة: 171/3، وكشف الظنون: 453، ومعجم المفسرين: 379/1.

التعريف بتفسيره

اختصر هذا التفسير من معالم التنزيل للبغوي، وضم إلى ذلك ما نقله واختصره من تفاسير من تقدمه، وليس له فيه . كما يقول . إلا النقل والانتخاب، مع حذف الأسانيد وتجنب التطويل والإسهاب، وهو أكثر من رواية التفسير بالأثر، مهتم بتقرير الأحكام وأدلتها، ومملوء بالأخبار التاريخية والقصص الإسرائيلي الضعيف.

5. البحر المحيط

لأبي حيان الأندلسي (654. 754هـ)

التعريف بالمؤلف

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي، ثم القاهري، نشأ وتعلم بالأندلس، ثم رحل إلى مصر واستقر بها إلى أن مات، كان ملماً بالقراءات، عالماً بمختلف اللغات ووضع فيها مؤلفات في قواعدها ومعاجمها، كما كان شاعراً لغوياً بارعاً، اهتم بالنحو والصرف، وخدم هذا الفن طول عمره، له مؤلفات مختلفة لا تدخل تحت الحصر في التفسير والقراءات واللغة والأدب، وله عدة معاجم في اللغات الشرقية القديمة مثل الحبشية والسريانية والتركية وغيرها، وله منظومة في كل قراءة من القراءات السبع إلى جانب منظومة جامعة في القراءات على وزن الشاطبية، وكان شافعياً في مذهبه الفقهي، سني العقيدة¹.

التعريف بتفسيره

عرف أبو حيان بمنهجه في تفسيره من خلال مقدمته فقال: (وترتيب في هذا الكتاب أني أبتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية .. ثم أشرع في تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها ونسخها، وارتباطها بما قبلها، حاشداً فيها القراءات شاذها ومستعملها، ذاكراً توجيه ذلك في علم العربية، ناقلاً أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها، وأقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآني، ثم

¹ . السيوطي: بغية الوعاة في طبقات النحاة: 280/1، والدرر الكامنة: 70/5، ومعجم المفسرين: 654/2.

احتتم في جملة الآيات التي فسرتها بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصا، ثم أتبع آخر الآيات بكلام منشور أشرح به مضمون تلك الآيات على ما اختاره من تلك المعاني¹ .
والذي يرجع إلى كتاب البحر المحيط يلحظ بسهولة أن أبا حيان قد التزم إلى حد بعيد بهذا المنهج الذي اختطه لنفسه في التفسير، وكان إلى جانب ذلك ينقل كثيرا عن الزمخشري وابن عطية في المسائل النحوية والبلاغية ولكنه يكثر من الرد عليهم، وكثيرا ما يحمل أبو حيان على الزمخشري حملات ساخرة قاسية من أجل آرائه الاعتزالية مع إشاداته بمهارته البلاغية في كشفه. وخالصة القول فإن أبا حيان قد غلبت عليه في تفسيره الناحية التي برز فيها وهي الناحية البلاغية والنحوية.

6. غرائب القرآن ورغائب الفرقان

لنيسابوري (ت : ق: 9هـ)

التعريف بالمؤلف

هو لإمام الشهير نظام الدين، ابن الحسين بن محمد بن الحسين، الخراساني النيسابوري، المعروف بالنظام الأعرج، أصله من مدينة قم، ومنشأه بنيسابور، كان من أساطين العلم بنيسابور، ملما بالعلوم العقلية، جامعا لفنون اللغة العربية، وصاحب القدم الراسخة في التفسير والتأويل، وهو من كبار الحفاظ والمقرئين، مع جانب كبير من الورع والتقوى والتصوف، له مصنفات فريدة في اللغة والحساب وعلوم القرآن، ولكن أشهر مصنفاته تفسيره "رغائب القرآن".

التعريف بتفسيره

اختصر النيسابوري تفسيره هذا من التفسير الكبير للفخر الرازي، وضم إليه بعض ما جاء في الكشف، إلى جانب ما فتح الله عليه من فهم كتابه، وكثيرا ما ينصب نفسه حكما بين الرازي والزمخشري فيما اختلفا فيه، وقد ذكر في خاتمة تفسيره مراجعه بالتفصيل في اللغة والفقه والعقائد والسنن والتأويل وغيرها.

¹ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق د/ عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط2، سنة2003، 7/1.

وقد نسب النيسابوري إلى التشيع ، إلا أن القارئ لتفسيره لا يلمس أثرا لذلك ، بل كثيرا ما كان يدافع عن مذهبه السني ، ويرد على الشيعة ويبتل معقداهم ، والكتاب مطبوع ومتداول بين أهل العلم.

7 . تفسير الجلالين

جلال الدين المحلي (ت:864هـ) و جلال الدين السيوطي(911هـ)

التعريف بالمؤلفين

اشترك في تأليف هذا التفسير الإمامان المحلي والسيوطي ، أما الأول فهو جلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي ، فقيه أصولي ، متكلم ، نحوي ، برع في علوم كثيرة ، وكان آية في الفهم ، كما كان غرة عصره في سلوك طريق السلف ، وعلى مبلغ عظيم من الورع ، أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، ويواجه بالحق أكابر الظلمة والحكام ، يأتون إليه فلا يأذن لهم بالدخول عليه ، تولى التدريس ورفض تولي القضاء ، وكان متقشفا يتكسب بالتجارة ، وألف كتبا كثيرة تشد إليها الرحال¹ ، أما السيوطي فقد سبق التعريف به في كلامنا عن التفسير بالمأثور .

التعريف بهذا التفسير

ابتدأ جلال الدين المحلي تفسيره من سورة الكهف إلى سورة الناس ، ثم ابتدأ بسورة الفاتحة ، وبعد أن أتمها اخترتمه المنية فلم يفسر ما بعدها ، أما السيوطي فقد ابتدأ بسورة البقرة وانتهى عند آخر سورة الإسراء ، ووضع تفسير سورة الفاتحة في آخره لتكون ملحقة بتفسير صاحبها² .

والذي يقرأ تفسير الجلالين لا يكاد يلمس فرقا واضحا بين طريقة الشيخين ، فلا اختلاف بينهما في نواحي التفسير المختلفة إلا في مواضع قليلة لا تبلغ العشرة كما قيل ، وهو غاية في

¹ . طبقات المفسرين للدودي:80/2، والبدر الطالع:115/2، ومعجم المفسرين:485/2.

² . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون:445.

الاختصار والإيجاز ، ومن أعظم التفاسير انتشارا وقبولاً عند أهل العلم.، طبع مرات كثيرة وعلى هامشه أسباب النزول للواحدى وغيره.

8 . السراج المنير

في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير

للخطيب الشربيني (.... 977هـ)

التعريف بالمؤلف وتفسيره

هو الإمام العلامة شمس الدين محمد بن محمد الشربيني القاهري الشافعي، كان عالماً مفتياً، ورعاً متعبداً، درس وأفتى في حياة شيوخه¹، وتفسيره متوسط الحجم، يذكر القراءات المتواترة ، ويستطرد إلى ذكر المذاهب الفقهية وأدلتها ، مع إيراده بعض القصص الإسرائيلي الغريب دون تعقيب ، كما يلاحظ عليه غلبة الجانب القصصي قياساً مع جوانب التفسير الأخرى، والكتاب مطبوع ومتداول بين طلبة العلم.

9 . إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

لأبي السعود (ت: 977هـ)

التعريف بالمؤلف

هو أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى الحنفي، ولد سنة: 893هـ بقرية قريبة من القسطنطينية، مفسر، أصولي ، شاعر، عارف باللغات العربية والتركية والفارسية، من فقهاء الحنفية وعلماء الترك المستعربين، وتلمذ على والده وعلى جلة من العلماء ، وتولى التدريس ثم القضاء بالقسطنطينية، ثم الفتوى ومكث فيه زهاء ثلاثين سنة أظهر فيها دقته العلمية وسارت بذكره الركبان في المشرق والمغرب، اشتهر بتفسيره "إرشاد العقل السليم" قال فيه صاحب كشف الظنون: (اشتهر صيته وانتشرت نسخه في الأقطار، ووقع التلقي بالقبول من

¹ . شذرات الذهب: 384/8، ومعجم المفسرين: 485/2.

الفحول والكبار ، لحسن سبكه ولطف تعبيره ، فصار يقال له خطيب المفسرين .. والحق أنه حقيق بما بلغ من رتبة الاعتبار والاشتهار مع ما فيه من المنافي لدعوى التنزيه¹ ولما توفي دفن إلى جوار الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري سنة 977هـ².

التعريف بتفسيره

اعتمد أبو السعود في تفسيره هذا على تفسير الكشاف والبيضاوي وغيرها ممن تقدمه ، ودون اغترار بما جاء في الكشاف من اعتزالات ، بل لم يذكرها إلا من باب التحذير منها ، مع جريانه مع مذهب أهل السنة في تفسيره كله ، ولكنه وقع فيما فيه صاحب الكشاف في نقله أحاديث فضائل السور الباطلة، وقد توزع اهتمام أبي السعود في تفسيره على الجوانب الآتية :

1. الكشف عن الجوانب البلاغية والجمالية في القرآن الكريم وسر إعجازه في نظمه وأسلوبه.
 2. ذكر وجوه المناسبات بين السور والآيات.
 3. ذكر وجوه القراءات بالقدر الذي يساعد على فهم المعنى.
 4. مقل من ذكر الإسرائيليات ، ويصدرها بصيغة التمريض "روي" من غير تعقيب .
 5. مقل في جانب الأحكام، ويسرد المذاهب دون تدليل أو ترجيح.
 6. يهتم بالناحية الإعرابية إذا تعددت المعاني في الآية، ثم يرجح واحدا منها مع الأدلة.
- والخلاصة أن الكتاب دقيق في جانبه العلمي، يبعد عن الخلط والاستطراد فيما لا يتصل بالتفسير، وهو مطبوع في خمسة أجزاء متوسطة الحجم.
- هذه بعض النماذج من كتب التفسير بالرأي في القرون العشرة الأولى، وفي العصر الحديث هناك كتب كثيرة في التفسير غلب عليها التفسير بالرأي، ولا يتسع المقام كي نعرض عليها.

¹ . حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: 1481.

² . انظر في ترجمته: البدر الطالع في أعيان القرن التاسع: 261 ، ومعجم المؤلفين 11:301، وشذرات الذهب 8 : 398.

الإنتاج التفسيري عند الفرق الكلامية

أو التفسير بالرأي المذموم

1. التفسير عند المعتزلة

نشأت فرقة المعتزلة في العصر الأموي، وتمكنت في عصر بني العباس، وقام مذهبهم على أصول خمسة وهي التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما التوحيد فهو لب مذهبهم ، وقد بنوا على هذا الأصل استحالة رؤية الله تعالى يوم القيامة، وأن الصفات ليست شيئاً غير الذات ، وأن القرءان مخلوق لله تعالى .

. وأما العدل فقد بنوا عليه أن الله تعالى لم يشأ جميع الكائنات ولا خلقها، وأن أفعال العباد لم يخلقها الله تعالى، ولم يرد إلا ما أمر به شرعا ، وما سوى ذلك فإنه يكون بغير مشيئته تعالى .

. وأما الوعد والوعيد فمضمونه أن الله يجازي من أحسن بالإحسان ومن أساء بالإساءة ، فلا يغفر لمرتكب الكبيرة ما لم يتب، ولا يقبل في أهل الكبائر شفاعة، ولا يخرج أحدا منهم من

النار، ولا يجوز أن يعفو عن احد منهم ، فالثواب والعقاب قانون حتمي .

- وأما المنزلة بين المنزلتين فمضمونها أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر بل هو بين المنزلتين.

- وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنهم قالوا يكون بالقلب إن كفى وباللسان إن لم يكف، وباليد إن لم يغنيا، وبالسيف إن لم تكف اليد لقوله تعالى: " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما.." ¹ وهم في ذلك لا يفرقون بين صاحب السلطان وغيره.

مسلكهم في التفسير :

1 . إقامتهم تفسيرهم على أصولهم الخمسة.

2 . إنكارهم لما يعارضهم من الأحاديث الصحيحة واستبعاد صحتها وثبوتها .

3 . ادعائهم أن كل محاولاتهم التفسيرية مرادة لله تعالى .

1 . سورة الحجرات، الآية: 9.

4 . يتصرفون في القراءات المتواترة المنافية لمذهبهم كما في قوله تعالى : "وكلم الله موسى تكليماً"¹

فينصبون اسم الجلالة ، ووفي قوله تعالى : "وقالوا قلوبنا غلف"² بضم اللام ، بمعنى قلوبهم أوعية للعلم .

5 . يهتمون بالمبدأ اللغوي ويقدمونه .

6 . يتذرعون بالمجاز فيما يخالف ظاهره أصولهم المذهبية.

7 . يحكمون العقل فيما أنكروه من الحقائق الدينية ، فأهل السنة مثلاً يقولون بحقيقة السحر وتأثيره على المسحور، ووجود الجن وما لهم من تأثير في الإنسان من مس وصرع ، ويقولون بكرامات الأولياء ، ولكن المعتزلة وقفوا ضد ذلك كله ، وتأولوا ما صحح في ذلك من سحر النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا تأولوا ما جاء في سورة الفلق وغيرها³ .

إنتاجهم التفسيري

إن المتصفح لطبقات المفسرين للسيوطي أو الفهرست لابن النديم يجد أن الإنتاج التفسيري للمعتزلة ليس بالقليل، ومن أهم من ألف في التفسير من أعيان المعتزلة عبد الرحمن بن كيسان الأصم (ت: 240هـ) وأبو علي الجبائي (ت: 303هـ) وأبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخي الحنفي المعروف بالكعبي المعتزلي (ت: 319هـ) وأبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني (ت: 322هـ) وأبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت: 384هـ) والقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني (ت: 415هـ) والشريف المرتضى العالم الشيعي العلوي (ت: 436هـ) وعبد السلام بن محمد بن يوسف القزويني شيخ المعتزلة (ت: 483هـ) وأبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت: 538هـ) والمطبوع المشهور من هذا الإنتاج التفسيري ما يأتي:

1 ، سورة النساء، الآية: 163 .

2 . سورة البقرة، الآية: 87 .

3 . الذهبي ، التفسير والمفسرون: 372/1 .

- تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار ألفه صاحبه بغرض فصل محكم القرآن عن متشابهه ، ولا يفسر القرآن كله آية آية، ولكن يقتصر على ما له علاقة بالموضوع .
- غرر الفوائد ودرر القلائد المشهور بأمامي الشريف المرتضى، وهو كتاب يشمل محاضرات أملاها في ثمانين مجلسا، تشتمل بحوثا في التفسير الحديث والأدب، ويهدف من ورائها إلى التوفيق بين آيات القرآن وآرائه الاعتزالية .
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، وهو التفسير الذي سنتناوله بالدراسة كمثال على التراث التفسيري عند المعتزلة، باعتباره تفسيرا كاملا ومشهورا، وصار يمثل مرجع المعتزلة ومن ذهب مذهبهم في التفسير.

الكشاف

عن حقائق غوامض التنزيل

وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل

محمود بن عمر الزمخشري (ت: 528هـ)

التعريف بالمؤلف¹

هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد ، وقد كانت كنيته أبا القاسم ، وإن لم يكن له ولد ، وأما تلقيبه " جار الله " فلأنه جاور زمانا بمكة فكان يعتز بهذه الإقامة جوار البيت الحرام ، كما غلب عليه لقب الزمخشري نسبة إلى بلده الذي ولد ونشأ به .

وقد أخذت الرحلات من حياة الزمخشري قسطا وافرا ، وبالرغم مما كان يعاني منه من عجز جسماني منذ عهد مبكر ، وهو فقدانه لأحد رجليه وتعويضها برجل من خشب ، فإن هذا لم يقعد به يوما ما عن الطلب والسعي في سبيل تحقيق طموحاته ، فقضى زمنا طويلا من حياته طوافا في أرجاء دولة السلاجقة .

ومن هنا لم يكن الغرض من تلك الرحلات علميا فقط ، لأنه قد نبغ في كثير من العلوم ، وذاع صيته وسارت بذكره الركبان قبل أن يخرج من وطنه الأول ، فكان خروجه أول ما خرج رغبة بالظفر بمنصب يليق بمكانته ، ويسد حاجته ، لأنه كان من عائلة فقيرة الحال .

ولقد طال العمر بالزمخشري وهو يتطلع إلى تحقيق طموحاته ، ولما قارب الخمسين من عمره وقد ضاعت تلك الأمانى ، فأحس بأنه كان يطارد سرايا ، ولم يظفر بشيء من تلك الآمال في ذلك الإقليم الذي تحدث عنه المقدسي بأنه البلد الذي يبلغ فيه العلماء رتبة الملوك ، فراح يشكو حظه ، وينتقد ذلك الزمان الذي قسا على أمثاله أشد قسوة² :

أشكو الزمان ولا أرى لي مشكيا ممن يرى شعثي ورقة حالي
يا حسرتي من لي بصفقة رابح في متجر والفضل رأس المال

¹ . توسعنا في التعريف بهذا التفسير لما له من أثر . سلبا و إيجابا . في حركة التفسير .

² . الزمخشري : 73 نقلا عن مخطوط ديوان الأدب : 95

يا ويح أهل العلم كيف تأخروا والسبق كل سبق للجهال
في ذمة الأيام لي دين متى أستقضه لاقيت طول مطال
فإلى إلهي المشتكى وبصنعه دون الأنام منوطة آمالي

فرجع إلى نفسه وهو يعاتبها على ما فات وولى من أمره ، وكان الزمخشري قد نزل به مرض
أبعده وأنهك قواه ، مما زاده حسرة ، فاتجه إلى ربه ضارعا لئن أُنجاه من هذه ألا يطأ عتبة
سلطان، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن مدحهم ، وأن يعف عن التطلع لعطاياهم ، أو الحرص
على تولي مناصبهم ، وأن يحبس نفسه على التأليف والتدريس والعبادة . وهنا طارت به
أحلامه إلى مهوى الأفئدة . مكة . ليقيم بجوار بيت الله الحرام ، ويكفر عن ذلك الماضي الذي
استلهم منه دروسا ومواعظ جمّة ، فخرج قاصدا مكة . مرورا ببغداد . عازما على الإقامة هناك ،
متمثلا بقوله¹ :

يا من يسافر في البلاد منقبا إني إلى البلد الحرام مسافر
إن هاجر الإنسان عن أوطانه فالله أولى من إليه يهاجر
حسي جوار الله حسي وحده عن كل مفخرة يعد الفاخر
سأقيم ثم وثم تدفن أعظمي ولسوف يبعثني هناك الحاشر

ولما انتهى الزمخشري إلى مكة ، لقي هناك من ذوي الجاه والسلطة من يقدر قدره ، ويرعى
علمه ومكانته، إنه الأمير أبو الحسن علي بن حمزة بن وهاس الشريف الحسيني ، وكان ذا فضل
وقريحة في النظم والنثر ، وصاحب مصنفات ، فحصل الإنتفاع لكل واحد منهما بالآخر، وكان
ابن وهاس يوافقه في مذهبه ، فشجعه على تأليف تفسيره الكشاف كما نص على ذلك في
المقدمة، ولقد كان له خير معين على تصنيف هذا التفسير الذي طالما تردد في كتابته.
وبعد مدة حمله الشوق والحنين إلى زيارة بلده خوارزم ، فرجع إلى موطنه وهناك وافته المنية
ودفن في مدخل مدينته سنة:538هـ.

¹ . الزمخشري : 42 نقلا عن ديوان مخطوط الأدب ورقة : 42

أثر الزمخشري في حركة التفسير

كان الزمخشري . كغيره من رؤوس المعتزلة . يجاهر باعتزاله ويفاخر غيره بذلك ، ولما شرع في تصنيف كتاب الكشاف صرح في مقدمته أنه وضعه استجابة لأتباع مذهبه ، فجسد مسلك المعتزلة في التفسير في كل أبعاده وخصائصه حتى صار تفسيره علما على هذا الاتجاه، ومع ذلك فإن هذا التفسير قد أحدث صدى واسعا عند المشتغلين بالتفسير قديما وحديثا مما يبعث على التساؤل عن سر رواجه وقوة تأثيره.

ولقد تحدث أكثر من باحث عن أثر الزمخشري في من جاء بعده من المفسرين، وأسهبوا في ذكر أسماء من نقلوا عن تفسيره، ولكنهم سكتوا عن تعليل هذا التأثير الواسع الذي امتد عبر قرون طويلة، كما سكت أغلبهم عن سر شهرة هذا المصنف الذي طاول به الزمخشري كبار المفسرين ممن سبقوه أو جاءوا بعده .

وفي رأبي أنه من الضروري أن نبحت سر هذا التأثير الواسع، وسبب شهرة هذا التفسير وذيوعه بين طلاب العلم والدارسين .

وربما كان في مقدمة أسباب تقدم هذا التفسير عن غيره، واحتلاله رتبة الصدارة في درجة تأثيره في من جاء بعده من المفسرين، سبقه في تطبيق الدراسات البيانية في تفسير القرآن الكريم، وذلك بعد اكتمال نظرية النظم ونضحها، ولذا قال ابن خلدون : (.. والعناية به . أي علم البيان . لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره .. وسببه والله أعلم أنه كمالي في العلوم اللسانية، والصنائع الكمالية توجد في وفور العمران، والمشرق أوفر عمراننا من المغرب كما ذكرناه، أو نقول لعناية العجم وهم معظم أهل المشرق، كتفسير الزمخشري، وهو كله مبني على هذا الفن، وهو أصله ..)¹

ثم قال : (وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون، وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه، حتى ظهر تفسير جار الله الزمخشري، ووضع كتابه في التفسير، وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن، بما يبدي البعض من إعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير، لولا أنه يؤيد عقائد

¹ . ابن خلدون . المقدمة : 475

أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة، ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة، مع وفور بضاعته من البلاغة، فمن أحكم عقائد أهل السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة، حتى يقدر على الرد عليه من جنس كلامه، أو يعلم أنها بدعة فيعرض عنها، ولا تضره في معتقده، فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب، للظفر بشيء من الإعجاز، مع السلامة من البدع والأهواء.¹

وقد تابع السيوطي ابن خلدون في تعليل سر شهرة الكشاف وذيوعه واشتغال طلبة العلم به، سواء كانوا من خصومه أو من أتباعه .

قال السيوطي بعد أن ذكر قدماء المفسرين : (ثم جاءت فرقة أصحاب نظر في علوم البلاغة التي بها يدرك وجه الإعجاز، وصاحب الكشاف هو سلطان هذه الطريقة، فلذا طار كتابه في أقصى الشرق والغرب، ولما علم مصنفه أنه بهذا الوصف قد تجلّى قال . تحدثا بنعمة الله وشكرا . :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمري مثل كشاف

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء، والكشاف كالشافي)²

أما الأستاذ عبد العظيم الزرقاني فيرى أن تفسير الكشاف قد امتاز عن غيره من التفاسير بأمر جعلته يحظى بهذه الصدارة، ثم ذكر (منها خلوه من الحشو والتطويل، ومنها سلامته من القصص والإسرائيليات³، ومنها اعتماده في بيان المعاني على لغة العرب وأساليبهم، ومنها عنايته بعلمي المعاني والبيان والنكات البلاغية تحقيقا لوجوه الإعجاز، ومنها سلوكه فيما يقصد إيضاحه طريق السؤال والجواب كثيرا ..)⁴

1 . الصفحة نفسها : 475

2 . انظر : يوسف إلبان سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، طبع لبنان : ج/1/975 . نقلا عن نواهد الأبيكار، للسيوطي .

3 . لا نوافق من حكم بسلامة تفسير الكشاف من القصص الباطلة والإسرائيليات ، ولكنها قليلة إذا قورنت بما جاء في بعض تفاسير معاصريه.

4 . عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن : 70/2

وقد فصل هذا المعنى حاجي خليفة في "كشف الظنون" مقررًا أن ما تميز بن الزمخشري هو توفره على القدر الزائد على التفسير، من استخراج محاسن النكت والفقر، ولطائف المعاني التي تستعمل فيها الفكر، وبيان ما في القراءان من الأساليب لا يتهاياً إلا لمن برع في هذين العلمين، لأن لكل نوع أصولاً وقواعد، ولا يدرك فن بقواعد فن آخر، والفقيه والمتكلم بمعزل عن أسرار البلاغة، وكذا النحوي واللغوي، وقد كان الصحابة يعرفون هذا المغزى بالسليقة، فكانوا يعرفون بالطبع وجوه بلاغته، كما كانوا يعرفون وجوه إعرابه، ولم يحتاجوا إلى بيان النوعين في ذلك، لأنه لم يكن يجهلها أحد من أصحابه، فلما ذهب أرباب السليقة، وضع لكل من القواعد والبلاغة قواعد يدرك بها ما أدركه الأولون بالطبع، فكان حكم علم البيان والمعاني كحكم النحو.

ولما كان كتاب الكشاف هو الكافل في هذا الفن، اشتهر في الآفاق، واعتنى الأئمة المحققون بالكتابة عليه، فمن يميز لاعتزال حاد فيه عن صوب الصواب، ومن مناقش له فيما أتى به من وجوه الاعراب، ومن محش وضح ونقح، واستشكل وأجاب، ومن مخرج لأحاديثه، عزا وأسند وصحح وانتقد، ومن مختصر لخص وأوجز.¹

كما ينبغي أن لا نغفل سببا آخر من أسباب رواج كشاف الزمخشري، وهو اختلاف تفاسير المعتزلة على كثرتها، فلم يبق بين أيدينا تفسير كامل للقرآن ينسب لإمام من أئمة هذه الفرقة التي كان لها أثر واضح وبارز في تاريخ الفكر الإسلامي، حتى صار دارس الفكر الاعتزالي لا يكاد يجد بين يديه في مجال التفسير كتاب شامل لتفسير كل آي القراءان سوى هذا الكتاب، ليطلع من خلاله على آراء المعتزلة، فيتعين عليه الرجوع إليه ليعرف آراءهم من مصادرهم.

وثمة عامل آخر بالغ الأهمية في أسباب شهرة كشاف الزمخشري وانتشاره، وقد سكت عنه أغلب الدارسين، وهو الصلة التاريخية والفكرية بين المعتزلة والشيعة أولاً، وصلة الزمخشري

¹ . حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : 1477/2

بالشيعة الزيدية عند مجاورته بمكة ثانياً¹، حيث كان لهم دور بارز في خدمة هذا التفسير والترويج له بعدئذ، ذلك أن مذهب الزيدية الكلامي هو الاعتزال، ولا يختلف الزيدية عن المعتزلة في الأصول إلا في مسألة الإمامة². وهي مسألة فقهية. وقد توثقت هذه الصلة بين الزمخشري وفكر الشيعة الزيدية عن طريق شيخه المفسر الحاكم الجشمي الذي كان يؤكد على هذه الصلة القديمة بين المعتزلة والزيدية، قال الحاكم: (ومن أصحابنا البغدادية من يقول "نحن الزيدية" لأنهم كانوا مع أئمة الزيدية والمبايعين لهم والمجاهدين تحت رايتهم، ولاختلاطهم قديماً وحديثاً، ولاتفاقهم في المذهب)³ وقد ارتقى أيضاً بسند المعتزلة من شيوخه حتى انتهى به إلى علي بن أبي طالب وقال: (لا شبهة أن المعتزلة هم الشيعة لاتباعهم أمير المؤمنين وأهل بيته في كل عصر وحين، واتفاقهم في مذاهبهم).⁴ وخير دليل على صحة كلامنا هذا هو كون أغلب الأسماء التي ارتبطت بالتصنيف حول تفسير الزمخشري هي أسماء تعود إلى بعض فرق الشيعة من أهل المشرق، وهو ما نفهمه من مقالة السبكي (.. هذا الكتاب الذي اتخذت الأعاجم من دراسته في هذا الزمان ديدنها).⁵

ونظراً لهذه الأسباب وغيرها فإننا إذا أردنا أن نتبع أثر كتاب الكشاف في الحركة العلمية، فإننا نجد كالشجرة التي امتدت أغصانها الباسقة في الفضاء، ثم لا زالت تورق وتثمر كل حين، وهكذا تفرقت مادته العلمية في كتب النحو، واللغة والبلاغة، والأدب، والتفسير، حتى يصعب على الدارس أن يحصر حجم هذا الأثر الذي تركه هذا التفسير فيما بين أيدينا من تراث فكري، وحسبنا أن نلم ببعض هذا الأثر فيما له صلة ببحثنا، والمتعلق بحركة التفسير وعلوم القرآن، وسنرصده هذا التأثير من خلال العناصر الآتية:

¹ . وهو ما نبه عليه أبو حيان نفسه في تفسير قوله تعالى: " .. قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين " سورة البقرة: 23 . حيث استطرد الزمخشري للنيل من خلفاء بني أمية والانتصار لبعض أئمة الزيدية، فنقل أبو حيان كلامه ثم علق عليه بقوله: (وإنما ذكره الزمخشري لأنه كان بمكة مجاوراً للزيدية ومصاحباً لهم، وصنف كتابه الكشاف لأجلهم ..) البحر المحيط: 378/1

² . الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير: 84 . نقلاً عن شرح العيون مخ . ورقة 23/1 .

³ . الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن، نقلاً عن شرح العيون، ورقة 50/1

⁴ . المصدر نفسه: 50/1

⁵ . منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه: 267 نقلاً عن كتاب معيد النعم ومبيد النقم للسبكي: 114

1 . الاقتباس منه :

كان أغلب من كتب في علوم القرآن عالة على تفسير الكشاف فيما تعلق بالمباحث النحوية والبلاغية، ويأتي في مقدمتهم برهان الدين الزركشي في كتابه " البرهان في علوم القرآن " حيث رجع إلى هذا التفسير فيما يزيد عن مائتي موضع، وإن كان تارة يوافقه وتارة أخرى يخالفه .
ورجع إليه السيوطي في كتابه " الإتقان في علوم القرآن " في مواضع كثيرة، يضيق المقام بذكرها¹، وفعل مثل ذلك في كتابه "معترك الأقران في إعجاز القرآن"
وهكذا فإننا إذا تتبعنا الكتابات المتعلقة بإعجاز القرآن الكريم، فإننا لا نكاد نظفر بدراسة أغفلت جهود الزمخشري وإبداعاته في هذا الجانب، حتى ذهب بعضهم إلى أن كل من كتب في إعجاز القرآن بعد الزمخشري كان عالة على كشافه².

2 . اختصاره :

وعلى الرغم من كون تفسير الكشاف في غاية الإيجاز والاختصار فإنه قد استهوى بأسلوبه وبلاغته أكثر الدارسين، فعمل على اختصاره خلق لا يحصى عددهم، نذكر منهم:
- الفضل بن الحسن الطبرسي (ت : 561هـ) الذي عنى بالبلاغة القرآنية ودراسة إعجاز القرآن والكشف عن وجوهه عناية بالغة، تلفت نظر المختصين بالدرس البلاغي وقضية الإعجاز خاصة في تفسيره " جوامع الجوامع " الذي خصصه لهذا الموضوع .
(لذا فإن " جوامع الجوامع " عيال على تفسير الزمخشري، وأنه في الحقيقة جاء مختصرا وبشكل إجمالي من غير تفصيل، على خلاف الكشاف الذي جاء مفصلا .)³

¹ . انظر الإتقان في علوم القرآن : 152/1 . 158/1 . 175/1 . 176/1 . 177/1

² . انظر مثلا : شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص : 52

³ . مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد السادس، السنة : 1999 . مقال : الإتجاه اللغوي في تفسير القرآن،

د. سامي الكناي ص: 53

. الشيخ محمد بن علي الأنصاري (ت : 662هـ) قام باختصاره، وتركزت جهوده في تخليصه مما جاء فيه من اعتزال، أو تعسف في توجيه نصوص الآيات، أو ما جاء فيه من كلام شبيه بالخطابة، ولا يخدم تفسير النص بما تدعو إليه حاجة طالب العلم¹.

. أحمد بن صالح بن محمد بن صالح، المعروف بابن أبي الرجال، عالم زيدي، مشارك في التاريخ والتفسير والأصول والنحو والمعاني والبيان، من أهل صنعاء مولدا ووفاة وقد كتب حاشية على الكشاف، اختصره وبسطه وقرب معانيه . وقد توفي سنة 1092هـ².

. أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الحمن الكردي، ثم المصري، أبو زرعة، ولي الدين، ابن الحافظ العراقي المشهور ، قاضي الديار المصرية، وهو فقيه شافعي أصولي، عارف بالتفسير والحديث والأدب، وعالم زمانه، ترجم له السخاوي ترجمة مطولة، وأثنى عليه، من آثاره " حاشية على الكشاف للزمخشري " قال صاحب كشف الظنون : في مجلدين، لخص فيها كلام ابن المنير وعلم الدين العراقي وأبي حيان، وأجوبة السمين الحلبي والصفاقسي، مع زيادة تخريج أحاديثه، توفي سنة : 826هـ³.

- أحمد بن محمد بن محمد الخجندي، جلال الدين، أبو الطاهر، محدث، مفسر، من فقهاء الحنفية، من أهل خجندة . مدينة كبيرة بخراسان . رحل في طلب العلم، ثم استقر بالمدينة المنورة يدرس ويفتي ويصنف إلى أن مات سنة : 802هـ ودفن مع شهداء أحد، من مصنفاته حاشية على الكشاف⁴ .

- ومنهم قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي، لخصه وسماه " تقريب التفسير، أتمه سنة : 698هـ ببلدة شيراز، أزال اعتزاله وبعض إطنابه، فهذب ونقح وضم إلى مواضع الانغلاق حلا

¹ . انظر : منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه : 276

² . محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت : ج 1/61

³ . الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع : 336/1

⁴ . المصدر نفسه : 194/2

وبيانا، وهو كتاب صغير الحجم وجيز النظم، مشتمل على الأهم من الكشاف مع زيادات شريفة¹.

- ولعل خير اختصار لتفسير الكشاف هو "كتاب أنوار التنزيل وأسرار التأويل" للقاضي العلامة ناصر الدين، عبد الله بن عمر بن محمد، البيضاوي، وهو قاض من أعيان الشافعية (ت: 692هـ) فقد لخصه وأجاد، وأزال عنه الاعتزال كما أضاف عليه فوائد جلييلة، واستنباطات دقيقة.

3. نقده وتخليصه من اعتزالاته :

لقد كان الزمخشري مجاهرا باعتزاله في كتابه الكشاف، وصرح في مقدمته أنه وضعه برغبة وإلحاح من علماء الفرقة الناجية . علماء العدل والتوحيد . فلا جرم بعدئذ أن يلقي هذا التفسير أكثر من معارض وناقده، ولكن القارئ سرعان ما يلاحظ أن جل الانتقادات الموجهة له تكاد تنحصر فيما أظهره هذا المفسر من تعسف وتعصب في نصرة مذهبه، وتحكيمه في معاني آيات القرآن الكريم، وكل من انتقده في هذا الجانب، قرن هذا النقد بالثناء عليه في الجوانب الأخرى التي أبدع وأجاد فيها .

من ذلك مثلا مقولة ابن خلدون في مقدمته : (.. ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن . علوم اللسان . من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة، حيث تعرض له في أي القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكانه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة، وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية، محسنا للحجاج عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان .)²

¹ . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : 1481/2 . وانظر البدر الطالع، للشوكاني : 299/2

² . المقدمة : 349

. وهذا ابن تيمية بالرغم من شدته على المخالفين يقر له بمحاسن تفسيره الكشاف، لولا فساد مذهبه الذي صبغ به تفسيره، فقال في معرض حديثه عن التفاسير المذهبية : (فما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من جهتين، تارة من العلم بفساد قولهم، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن، إما دليلا على قولهم، أو جوابا على المعارض لهم، ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة، ويدس البدع في كلامه، وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف ونحوه، حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله.)¹

. ونجد تاج الدين السبكي ينبري لتفسير الكشاف بالنقد، فإذا به يصدر كلامه بالمدح والإطراء، مقررا أنه كتاب فريد في بابه، ولكنه يجب تجريده مما فيه من ميول مذهبيه ليصلح الانتفاع به، فيقول: (اعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنفه إمام في فنه، إلا أنه رجل مبتدع، مجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيرا، ويسيء أده مع أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما في كتابه الكشاف من ذلك كله، ولقد كان الشيخ الإمام يقرئه، فلما انتهى إلى كلامه في قوله تعالى في سورة التكوير : " إنه لقول رسول كريم.. " الآية، أعرض عنه صفحا، وكتب ورقة حسنة سماها " الانكشاف عن إقراء الكشاف " وقال فيها : رأيت كلامه على قوله تعالى : " عفا الله عنك " وكلامه في سورة التحريم والزلزلة، وغير ذلك من الأماكن التي أساء أده فيها على خير خلق الله تعالى سيدنا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فأعرضت عن إقراء كتابه حياء من النبي . صلى الله عليه وسلم . مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة .)²

ثم قال تاج الدين السبكي معلقا على كلام والده : (فانظر كلام الشيخ الإمام الذي برز في جميع العلوم، وأجمع الموافق والمخالف على أنه بحر البحار منقولاً ومعقولا في حق هذا الكتاب الذي اتخذت الأعاجم دراسته في هذا الزمان ديدنها، والقول عندنا فيه أنه لا يسمح بالنظر فيه إلا لمن صار على منهاج أهل السنة، لا تزحزحه شبهات القدرية .)³

¹ . مقدمة في أصول التفسير : 22

² . منهج الزخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه : 267، نقلا عن معيد النعم ومبيد النقم، لتاج الدين السبكي : 114

³ . المصدر نفسه : 114

فهذا القول للسبكي في الحقيقة بقدر ما يكشف عن حجم المزالق التي تدحرج فيها الزمخشري، يكشف من جهة أخرى عن حسناته في هذا الكتاب، حيث نراه لا يعني أحدا من قراءته إذا أمن على نفسه السقوط في حبال القدرية .

وقد انتقد تفسير الكشاف الشيخ حيدر¹ في حاشية لم يتمها، وقدم لذلك بمقدمة تكلم فيها عن محاسن هذا التفسير ومساوئه، ومما جاء فيها : (.. وبعد، فإن كتاب الكشاف كتاب علي القدر، رفيع الشأن، لم ير مثله في تصانيف الأولين، ولم ير مثله في تأليف الآخرين، اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين، واجتمعت على رصانة أساليبه الأنيقة ألسنة الكملة المفلقين، ما قصر في تنقيح قوانين التفسير، وتهذيب براهينه، وتمهيد قواعده، وتشديد معاقده، وكل كتاب بعده في التفسير ولو فرض أنه لا يخلو من النقيير والقطمير، إذا قيس به لا تكون له تلك الطلاوة، ولا تجد فيه شيئا من تلك الحلاوة، على أن مؤلفه يقتفى أثره، ويسأل خبره، وقلما غير تركيبا من تراكيبه إلا وقع في الخطأ والخطل، وسقط في مزالق الخطب والزلل، ومع ذلك كله إذا فتشت عن حقيقة الخبر فلا عين منه ولا أثر، ولذلك قد تداولته أيدي النظار، فاشتهر في الأقطار كالشمس وسط النهار، إلا أنه لإخطائه طريق الأدب، وإغفاله للإجمال في الطلب، أدركته حرفة الأدب، ولفرط تصلبه في باطل الاعتزال، وإخلاله بإجلال أرباب الكمال، أصابته عين الكمال، فالتزم في كتابه أمورا أدهشت رونقه وماءه، وأبطلت منظره ورواءه، فتكدرت مشاربه الصافية، وتضيقت موارده الضافية، وتنزلت رتبته العالية .

منها أنه كلما شرع في تفسير آية من الآي القرآنية مضمونها لا يساعد هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتهاه، صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة، وتعسفات جامدة، وصرف الآية بلا نكتة من غير ضرورة عن الظاهر تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى، وليته يكتفي بقدر الضرورة، بل يبالغ في الإطناب والتكثير لئلا يوهم بالعجز والتقصير، فتراه مشحونا بالاعتزالات الظاهرة التي تتبادر إلى الأفهام، والخفية التي لا يتسارع إليها الأوهام، بل لا يهتدي إلى حبائله إلا وارد بعد

¹ . هو حيدر بن محمد الحوفي، الهروي، مفسر، متكلم، عالم بالعربية والمعاني والبيان، توفي بعد سنة : 820هـ شذرات الذهب : 145/7

وارد من الاذكياء الحذاق، ولا يتنبه لمكايده إلا واحد من فضلاء الآفاق، وهذه آفة عظيمة، ومصيبة جسيمة .

ومنها أنه يطعن في أولياء الله المرتضين من عباده، ويغفل عن هذا الصنع لفرط عناده، ونعم ما قال الرازي في تفسير قوله تعالى " يحبهم ويحبونه .. " (خاض صاحب الكشاف في هذا المقام في الطعن في أولياء الله تعالى، وكتب منها ههنا ما لا يليق بالعاقل أن يكتب مثله في كتب الفحش، فهب أنه اجتراً على الطعن في أولياء الله تعالى، فكيف اجتراه على كتبه ذلك الكلام الفاحش في تفسير كلام الله المجيد ..)¹

ومنها أنه مع تبخره في جميع العلوم على الإطلاق موصوف بلطائف المحاورة ونفائس المحاضرة أورد فيها أبياتاً كثيرة، وأمثالا غزيرة بنيت على الهزل والفكاهة أساسهما، وأوقدت على المزاح البارد نبراسهما، وهذا أمر من الشرع والعقل بعيد، سيما عند أهل العدل والتوحيد .

ومنها أنه يذكر أهل السنة والجماعة . وهم الفرقة الناجية . بعبارات فاحشة فتارة يعبر عنهم بالمجبرة، وتارة ينسبهم على سبيل التعريض إلى الكفر والإلحاد، وهذه وظيفة السفهاء الشطار، لا طريقة العلماء الأبرار.)²

أما الذين انتقدوه على وجه التفصيل، ووضعوا في ذلك مصنفات، فنذكر منهم :
الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد، ابن المنير الاسكندري، المالكي، في كتابه " الانتصاف من الكشاف " بين فيه ما تضمنه من الاعتزال، وناقشه في أعاريب وأجاد فيها، وهذا الكتاب مطبوع على حاشية الكشاف لأهميته ومكانته .

. وتلاه الإمام علم الدين بن عبد الكريم العراقي في كتابه " الإنصاف في مسائل الخلاف بين ابن المنير والزمخشري " جعله حكماً بين الكشاف والانتصاف، وذلك أنه لما رأى بأن انتقادات ابن المنير لا تخلو من تحامل في بعض الأحيان، حاول أن يدفع عن الزمخشري ويبين مواطن الزلل في قصد واعتدال، توفي سنة: 704 هـ.³

¹ . الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج17/12

² . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : 1482/2

³ . الدرر الكامنة : 13/3 . وطبقات الشافعية للسبكي : 126/6

. ولخصهما جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام في مختصر لطيف مع زيادة يسيرة، وتوفي سنة : 762هـ¹. قال المصنف : اختصرت فيه الانتصاف من الكشاف، وحذفت منه ما وقعت الإطالة به من نقل كلام الزمخشري على وجهه من غير كلام عليه إعجابا به، واستحسانا له، وما قابل به الزمخشري في سبه أهل السنة بمثلها مقتصرًا على العقيدة الصحيحة، وما يتعلق بالآية منها من دليل وحمل على تأويل، فلم أدع شيئًا من معاني الكتاب المذكور، فما وافق منه الصواب أبقيته بحاله، وما خالف ذلك بينت وجه ضعفه، وإخلاله².

- وصنف أبو علي، عمر بن محمد بن محمد بن خليل السكوني (ت : 717هـ) كتاب " التمييز لما أودعه الزمخشري من الاعتزالات في تفسير الكتاب العزيز " .

. ووضع العلامة شرف الدين الحسن بن محمد الطيبي على الكشاف حاشية مطولة أيضا، قال صاحب كشف الظنون : وهي أجل حواشيه، في ست مجلدات ضخمة، قال : رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - قبيل الشروع أنه ناولني قدحا من اللبن، وأشار إلي فأصبت منه، ثم ناولته عليه الصلاة والسلام، فأصاب منه، أقول سماها " فتوح الغيب في الكشاف عن قناع الريب"³، وتوفي سنة: 743هـ.

- ومنها حاشية العلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، قال في كشف الظنون : وهي ملخصة من حاشية الطيبي، مع زيادة تعقيد في العبارة ولم يتمها، وصل فيها إلى سورة الفتح، وفرغ منها سنة: 789هـ، وتوفي سنة: 792هـ⁴.

وعن قيمة حاشية السعد العلمية قال : (وأما شرح المحقق النحرير . أي السعد . فماله من نظير، لاشتماله على التحقيق والتدقيق، ولطائف التوفيق والتلفيق، لكنه فوت الفرصة واشتغل

¹، هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام، جمال الدين، النحوي المشهور . انظر بغية الوعاة : 68/2

² . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: 1477/2

³ . ابن خلدون، المقدمة : 349

⁴ . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : 1477/2

به في آخر عمره، فأتاه بريد الأجل قبل الفراغ من العمل، وقد تحققت منه أن هذا الكتاب على تعاقب الشهور والأعوام مهرة لم تتركب، ودرة لم تثقب .¹

كما يعتبر تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازي من أوسع المراجع التي تضمنت الرد على اعتزالات الزمخشري في كشافه، حيث كان يفيض في عرض آراء المعتزلة بصفة عامة وأدلتهم، وما بذله الزمخشري في ذلك من جهد للتوفيق بين نصوص القرءان وأصول مذهبه، ثم يكر على ذلك مبينا فساده .

4 . شروحه :

وعليه شروح كثيرة كانت في أغلبها في بسط الوجوه البلاغية وإسناد المروييات، ونسبة الشواهد الشعرية لأصحابها، وكانت هذه الشروح لا تخلو من انتقادات، بقيت محل نزاع بين أنصار الزمخشري وخصومه، مما أحدث حركة واسعة في التأليف فيما سمي بالمحاكمات .

وشرحه محمد بن أحمد بن عيسى المغربي (ت : 1005هـ) وهو فقيه مالكي، مفسر، صاحب تصانيف، في كتاب " غاية الإتحاف فيما خفي من كلام القاضي والكشاف " ² .

ومن شرحه أيضا العلامة عماد الدين يحيى بن قاسم العلوي، المعروف بالفاضل اليمني، كتب حاشية في مجلدين سماها " درر الأصداف في حل غوامض الكشاف " فرغ من تأليفها سنة : 738هـ

وشرح خطبة تفسير الكشاف مجد الدين الفيروزابادي (ت : 816هـ) وسماه " قطبة الخشاف لحل خطبة الكشاف "، ثم كتب شرحا آخر وسماه " نغمة الرشاف من خطبة الكشاف "، وتوجد منهما نسخة بدار الكتب المصرية³، وغيره كثير ذكرهم صاحب كشف الظنون⁴ .

¹ . المصدر نفسه : 1477/2

² . عادل نويهض، معجم المفسرين : 485/2

³ . الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع : 79/10 . وانظر : بغية الوعاة : 274/1

⁴ . انظر كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : 1479/2 . 1482

5. تخريج شواهد الحديث والنحو :

ولما كان كتاب الكشاف قد اشتمل على عدد وفير من الأحاديث والآثار المرفوعة والموقوفة، إلى جانب الشواهد الشعرية في اللغة والنحو والبلاغة، فإن هذا قد حمل بعضاً من رجال الحديث واللغة والنحو والبيان على خدمته من هذه الجوانب، ونذكر منهم :

- الإمام المحدث جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي، الحنفي، المتوفي سنة: 762هـ الذي وضع كتاباً في تخريج مروياته وسماه: تخريج أحاديث الكشاف، وقد اعتمده ابن حجر فيما بعد وزاد عليه¹.

- شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني، الحافظ، المتوفي سنة: 852هـ في كتاب سماه " الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف " في مجلد، واستدرك عليه في مجلد آخر، استوعب ما فيه من الأحاديث المرفوعة، فأكثر من تبين طرقها، وتسمية مخرجيها على نمط ما في أحاديث الهداية، لكنه فاته كثير من الأحاديث المرفوعة التي يذكرها الزمخشري بطريق الإشارة، ولم يتعرض غالباً لشيء من الآثار الموقوفة . وهو مطبوع على هامش الكشاف².

وشرح غير واحد أبيات الكشاف، وقد ذكر بعضهم صاحب كشف الظنون فقال :

(وشرح أبيات الكشاف لبعض الأفاضل مختصر، ذكر فيه أن بعض إخوانه أشار إليه بعد أن شرح أبيات المفصل، أن يشرح أبيات الكشاف، فأجاب، وهي زهاء ألف بيت أكثرها منشور المقاطع خافية معانيها على أكثر الأدباء حتى الفحول.)³

وشرح شواهد الكشاف في مجلدات لخضر بن محمد الموصللي، نزيل مكة المكرمة⁴،

¹ . الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : 310/2

² . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : 1482/2

³ . المصدر نفسه : 1482/2

⁴ . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : 1482/2

كما شرح الشواهد الشعرية لتفسير الكشاف محمد عليان المرزوقي الشافعي، المصري (ت : 1355هـ)¹ في كتاب سماه " مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف "، وهو مطبوع على هامش الكشاف .

6 . الجمع بينه وبين غيره من كتب التفسير :

وقد قام غير واحد من المفسرين بالجمع بين الكشاف وغيره من كتب التفسير بالرأي بصفة خاصة، ونذكر منهم :

• ومنهم الإمام أبو السعادات مبارك بن محمد بن الأثير الجزري، توفي سنة: 606هـ وهو محدث لغوي، مفسر له كتاب " الإنصاف في الجمع بين الثعلبي والكشاف " وهو تفسير كبير جمع فيه بين تفسير الكشاف والبيان للثعلبي والكشاف للزخشي² .

• ومنهم الإمام بدر الدين محمد المقرئ الحلبي، المعروف بالقاذفي المتوفي سنة: 705هـ الذي صنف " مختصر الراشف من زلال الكاشف من التفاسير " اختصره من الكشاف، مع المحاكمات من فوائد أبي العباس أحمد المهدي³، ومن كتاب أبي الليث السمرقندي⁴، ومن الكشاف والبيان للثعلبي⁵ .

ولأبي السعود العمادي المتوفي سنة : 982هـ تفسير " إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم " ويعرف بتفسير أبي السعود، جمع فيه بين درر الكشاف وغرر أنوار التنزيل، وأضاف إلى ذلك ما التقطه من بعض التفسير الأخرى، وهو تفسير مطبوع ومشهور .

• أبو حيان الأندلسي الذي أقام كتابه " البحر المحيط " على ثلاثة كتب في التفسير كان يراها من أحسن ما كتب في هذا العلم، وهي كتاب " المحرر الوجيز " لابن عطية الأندلسي،

1 . معجم المفسرين : 594/2

2 . ابن كثير، البداية والنهاية : 54/13

3 . هو أحمد بن عمار بن أبي العباس، المهدي، مقرئ كبير، مفسر نحوي، من أهل تونس، له كتاب " التفصيل الجامع لعلوم التنزيل " في التفسير، توفي سنة : 440هـ . انظر : الداودي، طبقات المفسرين : 56/1

4 . هو نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، أبو الليث، الملقب بإمام الهدى، محدث مفسر، صوفي، من أئمة الحنفية، له تفسير القرآن، قال حاجي خليفة : وهو كتاب مشهور، لطيف مفيد، انظر طبقات الداودي : 345/2، وكشف الظنون : 441.

5 . منهج الزخشي في تفسير القرآن وبيان إعجازه : 273

والكشاف للزمخشري، والتحرير والتجوير لأقوال أئمة التفسير لابن النقيب المقدسي¹، ولكنه في الوقت ذاته تتبع أخطاءه وزلاته وأحصاها ثم نظمها في أبيات طريفة في آخر تفسيره فقال فيه بعد أن أحصى بعض محاسنه :

ولكنه فيه مجال لناقد	وزلات سوء قد أخذن المخانقا
فيثبت موضوع الأحاديث جاهلا	ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقا
ويشتم أعلام الأئمة ضلة	ولا سيما إن أولجوه المضائقا
ويسهب في المعنى الوجيز دلالة	بتكثير ألفاظ تسمى الشقائقا
يقول فيها الله ما ليس قائلًا	وكان محبا في الخطابة وامقا
وينسب إبداء المعاني لنفسه	ليوهم أغمارا وإن كان سارقا
ويخطئ في فهم القرآن لأنه	يجور إعراب أبي أن يطابقا
وكم بين من يؤتى الكلام سليقة	وآخر عاناه فما هو لاحقا
ويحتال للألفاظ حتى يديرها	لمذهب سوء فيه أصبح مارقا ²

وهكذا فإننا إذا ذهبنا نحصي من خدم هذا التفسير شرحا أو تلخيصا، أو تهذيبا، أو تخریجا لمروياته، أو نقدا وتمحيصا لما جاء فيه، فإن الحديث يطول، ويمكن أن يكون بحثا مستقلا حول أثر الزمخشري في حركة التفسير والمفسرين، غير أن سر هذا الانتشار والتأثير لا ينحصر فيما ضمنه صاحبه من خالص علم التفسير، بل ترجع إلى أسباب مختلفة بسطناها من قبل.

¹ . البحر المحيط : 10/1 . 11

² . البحر المحيط 7 . 85

2 . تفسير القرءان عند الخوارج

نشأة الخوارج

يقصد بالخوارج فئة من أنصار علي رضي الله عنه الذين انشقوا عنه بعد قبوله فكرة التحكيم بينه وبين معاوية رغبة منه في حقن الدماء ، إلا أن هؤلاء المنشقين سرعان ما تكونت لديهم أفكار ونظريات في السياسة الشرعية وآراء فقهية وتصورات عقدية ، وما لبثوا أن دبت فيهم مظاهر الاختلاف والتحزب حتى بلغوا عشرين حزبا أشهرها :

1 . الأزارقة : أتباع نافع بن الأزرق ، وهم يكفرون من سواهم من المسلمين فيحرمون ذبائحهم والتزوج منهم ولا يجيزون التوارث بينهم ، ودارهم دار حرب .
2 . النجدات: وهم أتباع نحدة بن عامر، ويرون أن لا حاجة للناس لإمام قط، بل عليهم أن يتناصفوا بينهم.

3 . الصفرية : أتباع زياد بن الأصفر : ويقولون بأن أصحاب الذنوب مشركون ..

4 . الإباضية¹ : وهم أتباع عبد الله بن إباح ، وهم أعدل فرق الخوارج وأقربها إلى تعاليم أهل السنة، يجمعون على أن مخالفهم من المسلمين، ليسوا مشركين ولا مؤمنين، ولكن كافرين كفر نعمة، وتجوز شهادتهم ومناكحتهم والتوارث معهم ، وحرموا دماءهم ودارهم دار توحيد إلا معسكر السلطان، واستحلوا من غنائمهم الخيل والسلاح دون الأموال .

الإنتاج التفسيري للخوارج

لم يخلف الخوارج إنتاجا غزيرا في التفسير كباقي الفرق ، وترجع قلة إنتاجهم في التفسير إلى أسباب منها :

أ . كان أكثرهم من عرب البادية ومن قبيلة تميم خاصة ، وقل من سكن منهم البصرة والكوفة .
ب . انشغالهم بالحروب والذود عن آرائهم بالسلاح .

ج . خوفهم . بالرغم من شدوذهم الفكري . من الكذب والتقول على الله بغير علم .

ولهذه الأسباب وغيرها لم يخلفوا لنا تراثا تفسيريا إلا ما تبقى عند الإباضية، ونذكر منها :

¹ . يرى بعض من الإباضية اليوم أن فكر الخوارج لا يمثل مذهبهم ، والذي يقرأ لبعض متأخريهم بإنصاف يلحظ شيئا من ذلك .

- 1 . تفسير عبد الرحمن بن رستم (ت: 171هـ) مؤسس الدولة الرستمية بالجزائر.
- 2 . تفسير هود بن محكم الهواري (القرن 3هـ) وتفسيره مطبوع في أربع مجلدات.
- 3 . تفسير أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوريثاني (ق6هـ).
- 4 ، 5 ، 6 . داعي العمل ليوم الأمل . وهيمان الزاد إلى دار المعاد . وتيسير التفسير ، وكلها لمحمد بن يوسف اطفيش، وهي مطبوعة ومتداولة ، وستناول في هذا المختصر كتاب "هيمان الزاد إلى دار المعاد كمثال على تفاسير الإباضية ، وهو من التفاسير المشهورة والمتداولة بينهم .

التعريف بالمؤلف :

هو محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح إطفيش الوهبي الإباضي . الوهبي نسبة إلى عبد الله بن وهب الراسي، الزعيم الأول للخوارج . وهو من واد ميزاب بصحراء الجزائر . غرداية حاليا . نشأ بين قومه وعرف عندهم بالزهد والورع، واشتغل بالتدريس والتأليف وهو شاب لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وله مؤلفات كثيرة تربو على الثلاثمائة مؤلف، منها نظم مغني اللبيب لابن هشام في خمسة آلاف بيت، وله في الفقه شرح كتاب النيل وهو مطبوع في عشر مجلدات، كما له مؤلفات أخرى في النحو والبلاغة والفلك والعروض والفرائض وغيرها، وقد توفي سنة: 1332هـ الموافق: 1914م عن عمر ستة وتسعين سنة.

التعريف بتفسيره :

يعتبر هذا التفسير المرجع المهم عند الإباضية ، غير أنه لا يصور لنا حالة التفسير عند الخوارج في عصورهم الأولى لأنه من المتأخرين، وعليه كان هذا الكتاب يمثل التفسير المذهبي للإباضية في أواخر عصورهم فقط ، وبعد أن خرجوا من عزلتهم التي مكثوا فيها مدة طويلة من الزمن .

وإن المطالع لهذا التفسير يلاحظ أن المؤلف يذكر في أول كل سورة التعريف بها مع الاستشهاد في الغالب بأحاديث باطلة وموضوعة في فضلها ، ثم يذكر فوائد السورة بكلام يبعد عن السلامة والصحة ، فيشرح الآيات شرحا وافيا فيسهب في المسائل النحوية والبلاغية ويفيض في مسائل الفقه وعلم الكلام والأبحاث الأصولية والقراءات ، وهو مكثر إلى حد كبير

من الإسرائيليات التي لا يؤيدها الشرع ولا يستسيغها العقل السليم ، وإذا مر بأية تقارب مذهبه اهتم بها ودلل بها على صحة مذهبه ، وإذا مر بأية تخالف مذهبه اجتهد في تأويلها وصرفها عن المعنى القريب إلى معان بعيدة ولو كان بتكلف ظاهر ، ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي :

موقفه من أصحاب الكبائر:

في تفسير قوله تعالى : "بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون"¹

يقول " ..وإن قلت روى قومنا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن السيئة هنا الشرك ، وكذا قال الشيخ هود رحمه الله إنه الشرك ، قلت ما ذكرته أولى مما ذكره ، فإن لفظ السيئة عام وحمله على العموم أولى ، إذ ذلك تفسير منهما لا حديث ، ولا سيما أنهما وقومنا يعترفون بأن الكبيرة تدخل فاعلها النار ، ولم يحصروا داخلها على الشرك ..) حملته على أهل السنة :

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : "والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك .."² حيث يقول : (وترى أقواما ينتسبون إلى الملة الحنيفية يضاهئون اليهود في قولهم : "لن تمسنا النار إلا أياما معدودات" .

رأيه في الشفاعة :

يرى المؤلف أن الشفاعة لا تقع لغير الموحدين ، ولا لأصحاب الكبائر ، وعليه فلا يرى في آيات الشفاعة إلا ما يوافق مذهبه ، ومن ذلك ما جاء في تفسيره قوله تعالى : "إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء .." الأنعام: 159 يقول : فالآية نص أو كالتص في أن لا شفاعة لأهل الكبائر ، أي أنت بريء منهم على كل وجه ، وقد علمت عن عمر وأبي هريرة أن الآية في أهل البدع من هذه الأمة .

¹ . سورة البقرة ، الآية : 80 .

² . سورة البقرة ، الآية : 3 .

رؤية الله تعالى :

يرى المؤلف أن رؤية الله تعالى غير جائزة ولا واقعة لأحد مطلقا ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ويرد على أهل السنة الذين يقولون بجوازها، ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : "وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة " سورة البقرة: فنجده يسوق الروايات التي تجيز الرؤية ثم يرد عليها بقوله : (وهذه الرواية تقتضي لأن موسى يجيز الرؤية حتى سألها ومنعها ، وليس كذلك ، بل إن صح سياق هذه الرواية فقد سألوه الرؤية قبل ذلك ، فنهاهم عن ذلك وحرمه، أو سكت انتظارا للوحي في ذلك ، فلما فرغ وخرج، عاودوه ذكر ذلك ، فقال لهم: قد سألته على لسانكم كما تحبون ، لأخبركم بالجواب الذي يقممعكم لا لجواز الرؤية، فتجلى للجبل بعض آياته فصار دكا ، فكفروا بطلب الرؤية لاستلزامها اللون والتركيب والتحيز والحدود والحلول.. وذلك كله يستلزم الحدوث، وذلك كله محال على الله تعالى ..)

رأيه في التحكيم:

ففي تفسير قوله تعالى: " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما .. " سورة الحجرات: 10 يقول : (والإصلاح بالنصح والدعاء إلى حكم الله ، ثم يقول وسمع علي رجلا يقول في ناحية المسجد : "لا حكم إلا لله" فقال: كلمة حق أريد بها باطل .. لكم علينا ثلاث : لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله ، ولا نمنعكم الفياء ما دامت أيديكم في أيدينا ، ولا نبدأكم بقتال. قلت: الحق أنه إذا حكم الله بحكم في مسألة فلا حكم لأحد فيها سواه ، فالحق مع الرجل ولو كان على أعلم عالم ، ثم قال : وفي الآية دليل على أن البغي لا يزيل اسم المؤمن لأن الله سماهم مؤمنين مع كونهم باغين ، وسماهم إخوة مؤمنين. قلت : لا دليل .. فتسميتهم فيه مؤمنين باعتبار ما يظهر لنا قبل ظهور البغي ، وأما "إنما المؤمنون إخوة" فتسميتهم فيه إخوة باعتبار ما ظهر لنا قبل ظهور البغي.

إشادته بالخوارج وحطه من قدر عثمان وعلي ومن والاهما :

ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض منا استخلف الذين من قبلهم .."¹ حيث يقول: (قال المخالفون عن الضحاك: إن الذين آمنوا هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وإن استخلفهم : إمامتهم العظمى ، وسيأتي ما يدل على بطلان دخول عثمان وعلي في ذلك .. ثم قال : وفي أيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وقعت الفتوح العظيمة ، وتمكين الدين لله ، ولكن لا دليل في ذلك على إصابة عثمان وعلي ، فإنهما وإن كانت خلافتهما برضى الصحابة لكن ما ماتا إلى وقد بدلا وغيرا فسحقا .. كما في أحاديث عنهما أنهما مفتونان .

وفي تفسير قوله تعالى : "وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا .." سورة البقرة: 170 يقول: (واعلم أن الحق هو القرآن والسنة وما لم يخالفهما من الآثار، فمن قام بذلك فهو الجماعة والسواد الأعظم ولو كان واحدا، لأنه نائب النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين الذين اهتدوا، وكل مهتد، ومن خالف ذلك فهو مبتدع ضال ولو كان جمهورا ، هذا ما يظهر لي بالاجتهاد ، وكنت أقرره للتلاميذ عام تسع وسبعين ومائتين وألف، فأصحابنا الإباضية الوهبية هم الجماعة والسواد الأعظم وأهل السنة ولو كانوا أقل الناس ، لأنهم المصيبون في أمر التوحيد وعلم الكلام والولاية والبراءة والأصول دون غيرهم .

ثالثا : تفسير القرآن الكريم عند الشيعة

التعريف بالشيعة :

يطلق مسمى الشيعة على الذين ناصروا عليا وأهل بيته ووالهم وشايعوه ، وقالوا إن عليا هو الإمام بعد رسول الله ، وغن الخلافة حق استحقتها بوصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي لا تخرج عنه في حياته ولا عن أبنائه بعد وفاته إلا لأحد سببين: أن يغتصب غاصب هذا الحق لنفسه، أو يتخلى صاحب الحق عنه في الظاهر تقية منه ودرءا للشر عن أتباعه.

¹ . سورة النور ، الآية: 53.

ويعد هذا المذهب من أقدم المذاهب الإسلامية ، وقد كان مبدأ ظهوره من عهد عثمان رضي الله عنه ، واتسع في عهد علي رضي الله عنه ، وازداد اتساعا وقوة في عهد الأمويين لما نزل من المظالم بآل البيت رضي الله عنهم أجمعين.

ولم يكن الشيعة متفقين في المذهب والعقيدة ، بل تفرقت بهم الآراء والأهواء فانقسموا إلى فرق عدة، وكان أساس هذا الاختلاف أمرين : اختلافهم في المبادئ والتعاليم بين الغلو والتقديس والاعتدال ، واختلافهم في تعيين الأئمة بعد وفاة الحسين رضي الله عنه، ونذكر من هذه الفرق:

غير أن التراث التفسيري الموجود اليوم بين أيدينا يعود في الأغلب الأعم إلى أحد فرقتين هما: الزيدية ، والإمامية الإثناعشرية والإسماعيلية.

1 . فأما الزيدية فهم أتباع زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم الذي خرج على الأمويين ، ولما أثنى على الشيخين أبي بكر وعمر خرجوا عليه ورفضوه فعرفوا بالروافض . وقوام مذهب الزيدية إلى ما قبل تفرق أصحابه وظهور الشقاق بينهم يقوم على ما يأتي :
- أن الإمام منصوب عليه بالوصف لا بالاسم وهي كونه فاطميا ورعا سخيا يخرج داعيا الناس لنفسه.

- أنه يجوز إمامة المفضل مع وجود من هو أفضل منه بتوفر هذه الصفات فيه .
غير أن الزيدية لم يدوموا على وحدتهم، بل اختلفوا واقسموا إلى ثلاث فرق ..
2 . وأما الإمامية فهم الذين قالوا إن النبي صلى الله عليه سلم قد نص على إمامة عليه نضا ظاهرا ويحصرون الإمامة بعد علي في ولده من فاطمة رضي الله عنها ، وقد بالغوا في تشييعهم ، ولم يسلم من هذا الغلو إلا القليل منهم كالعلامة الطبرسي صاحب التفسير .
وقد اختلفوا بعد حين وذلك باختلافهم في تعيين الإمام بعد جعفر الصادق فانقسموا إلى فرق عدة أشهرها :

الإمامية الإثنا عشرية:

ويرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم ثم إلى ابنه علي الرضا، ثم إلى ابنه محمد الجواد، ثم ابنه علي الهادي ، ثم ابنه الحسن العسكري ، ثم ابنه محمد المهدي المنتظر وهو الإمام الثاني عشر ويزعمون انه دخل سردابا في دار أبيه بـ"سر من رأى" ولم يعد بعد ، وأنه سيخرج في آخر الزمان ليملأ الدنيا عدلا وأمانا كما ملئت ظلما وخوفا، وهؤلاء قد جاوزا الحد في تقديس أئمتهم منها قولهم إن الإمام له صلة روحية بالله كصلة الأنبياء، وإن الإيمان بالإمام جزء من الإيمان بالله وغيرها.. وأشهر تعاليمهم أربعة : العصمة والمهدية والرجعة والتقية.

الإمامية الإسماعيلية:

ويرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت بعد وفاته إلى ابنه إسماعيل بالنص من أبيه على ذلك ، وفائدة النص مع انه مات قبل أبيه هو بقاء الإمامة في عقبه ، ثم انتقلت الإمامة من ابنه إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين ، وبعده تتابع الأئمة المستورون إلى أن ظهر بالدعوة الإمام عبد الله المهدي رأس الفاطميين، وقد لقبوا بعدة ألقاب منها الإسماعيلية ، والباطنية (الإمام المستور، أو لقولهم بأن للقرءان ظاهرا وباطنا والمراد منه باطنه دون ظاهره) ، والقرامطة (أتباع حمدان قرمط) والحرمية (لإباحتهم المحرمات والمحارم) وغيرهم ..

أهم كتب التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية:

- 1 . مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار للمولى عبد اللطيف الكازراني
- 2 . تفسير الحسن العسكري .
- 3 . الصافي في تفسير القرءان لملا محسن الكاشي .
- 4 . تفسير القرءان لليسد عبد الله العلوي .
- 5 . بيان السعادة في مقامات العبادة لسultan محمد الخراساني
- 6 . مجمع البيان لعلوم القرءان للطبرسي .

مجمع البيان لعلوم القرآن للطبرسي (ت: 548هـ)

التعريف بالمؤلف:

مؤلف هذا التفسير في نظر أصحابه هو أبو علي، الفضل بن الحسن بن الفضل، الطبرسي، العالم الفاضل والفقير المفسر، المحدث الجليل الثقة، كبير أعيان الشيعة نشأ في بيت علم وفضل، وسائر سلسلته وأقربائه من العلماء، صاحب المصنفات المشهورة فرغ من تأليف تفسيره سنة 534هـ، ولما وصله تفسير الكشاف ألف مختصراً آخر ضمنه لطائف الكشاف وسماه جامع الجوامع، وله تفسير ثالث أخصر من الأولين وغيرها.

ومما يذكرون في سبب تأليفه لمجمع البيان قصة غريبة فيقولون ومن عجيب أمر هذا الطبرسي بل من غريب كراماته ما اشتهر بين الخاص والعام انه قد أصابته السكتة القلبية فظنوا به الوفاة فدفنوه ولما رجعوا عنه وجد نفسه في القبر ولا سبيل لنجاته فنذر أنه إذا أنجاه الله تعالى ألف كتابا في تفسير القرآن، فاتفق أن بعض النباشين قصده لأخذ كفته، فلما كشف عنه أخذ الشيخ بيد احدهم فذعر النباش فقال له لا تخف فأنا حي وقد أصابني السكتة.. فحملة النباش إلى بيته فأعطاه الخلعة وأولاده مالا جزيلا، وتاب على يده النباش، ثم إنه بعد ذلك وفي بنذره وشرع في تأليف مجمع البيان، وكانت وفاته سنة: 548هـ.

غير أن دوافع تأليف تفسيره التي نص عليها المؤلف في مقدمته تسكت عن هذه القصة بل تناقضها مما يرجح احتلاقها بهدف الترويج لهذا التفسير، فقد بين أن سبب تفسيره هو قلة المؤلفات في التفسير عند أصحابه إلا المختصرات التي لا تشفي الغليل، ومنها استجابته لرغبة مولاه الأمير السيد العلم الأجل.. فخر آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبي منصور محمد بن يحيى بن هبة الله الحسين في معرفة هذا الفن.. فوجب على نفسه إجابته إلى مطلوبه، وإسعافه بمحبوبه فاستخار الله وثمر عن ساعد الجد وبذل غاية الجهد في وضع هذا التفسير..

وصف الطبرسي لتفسيره

قال: (وابتدأت في تأليف كتاب هو في غاية التلخيص والتهذيب ، وحسن النظم والترتيب ، يجمع انواع هذا العلم وفنونه وغوامضه ومشكلاته، ويجوي فصوصه وعيونه ، من علم قراءته وإعرابه ولغاته وقصصه وآثاره وحدوده وأحكامه وحلاله وحرامه والكلام على مطاعن المبطلين فيه ، وذكرنا ما يتفرد به أصحابنا رضي الله عنهم من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول والفروع ، والمعقول والمسموع على وجه الاعتدال والاختصار . . وهو بحمد الله للأديب عمدة ، وللنحوي عدة ، ووللمقريئ بصيرة ، وللناسك ذخيرة ، وللمتكلم حجة وللمحدث محجة ، وللفقيه دلالة، وللواعظ آلة ، وسميته "مجمع البيان لعلوم القرآن".

والطبرسي . وبصرف النظر عما شاع في تفسيره من نزعة شيعية واعتزالية . قد أجاد في فنه ، وقد درج على الطريقة التي نص عليها في مقدمته فأفاد ، وينقل عن تقدمه من المفسرين الأقوال معزوة لأصحابها ويرجح ويوجه ما يختار منها بالدليل ، وإذا كان لنا عليه مأخذ فهي تشييعه وانتصاره لمذهبه ، وإنزاله لبعض آي القرآن على ما يوافق نزعته، إلى جانب روايته لكثير من الأحاديث الموضوعية، ومع ذلك فهو ليس مغاليا في تشييعه ولا متطرفا في عقيدته كما هو الشأن عند كثير من علماء الشيعة الإثنا عشرية.

مسلكه في تفسيره:

والطبرسي بالرغم من اهتمامه بمختلف جوانب التفسير المختلفة وإجادته فيها، فإن النزعة الشيعية تظل هي السمة البارزة في تفسيره فلا يمر بآية يراها توحى بشيء يقوي مذهبه إلا وقف عندها وأطنب في تقديم الحجج من خلالها على صحة ما يرى هو وطائفته ، ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي:

عصمة الأئمة :

فلما كان الطبرسي يدين بالقول بعصمة الأئمة فإننا نراه عند تفسيره لقوله تعالى: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا"¹ يحاول أن يقصر مفهوم أهل البيت

¹ . سورة الأحزاب، الآية : 33.

على النبي صلى الله عليه وسلم وعلي وفاطمة والحسن والحسين .. ويسرد أخبارا في ذلك إلى أن يقول : والروايات في هذا كثيرة من طريق العامة والخاصة لو تصدينا لإيرادها لطال الكلام ..

قوله بالرجعة:

ولما كان الطبرسي يقول بالرجعة فإنه عندما يقف عند تفسير قوله تعالى : "ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون"¹ فيقول ما نصه: واستدل قوم من أصحابنا بهذه الآية على جواز الرجعة، وقول من قال إن الرجعة لا تجوز إلا في زمن النبي لتكون معجزة له ودلالة على نبوته باطل ، لأن عندنا بل عند أكثر الأمة يجوز إظهار المعجزات على أيدي الأئمة والأولياء، والأدلة على ذلك مذكورة في كتب الأصول.

ويمضي الطبرسي على هذا المبدأ كلما مر بآية يلتمس منها إشارة يمكن التعلق بها لنصرة مذهبه أفاض في توضيحها وتوجيهها لخدمة معتقده، فاستدل بقوله تعالى: "الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة.." ² على عقيدة غيبة المهدي وزمان خروجه، ويدلل بقوله تعالى من سورة آل عمران : "لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة.." ³ على جواز التقية أحيانا ووجوبها أحيانا أخرى .. كما استدل بقوله تعالى: "فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة.." ⁴ واحتج بقوله تعالى : ".. وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين" ⁵ على أن المسح هو الفرض في الرجلين ، ويدافع عن مذهبه بأدلة إن دلت على شيء فإنما تدل على قوة عقلية عند الرجل وسعة ذهنه وكثرة اطلاعه .

1 . سورة البقرة : 55.

2 . سورة البقرة ، الآية : 2

3 . سورة آل عمران ، الآية : 28.

4 . سورة النساء ، الآية:24

5 . سورة المائدة ، الآية : 7.

تأثر الطبرسي بمذهب المعتزلة:

ولما كان مذهب الطبرسي يتداخل في كثير من المسائل الكلامية مع مذهب الاعتزال فقد كان مؤيدا لبعض آرائهم في التفسير ويثني عليهم ويقوي أدلتهم ويعضدها، ومن ذلك ما جاء من أقوالهم في السحر والشفاعة ورؤية الله تعالى وغيرها ، وإذا خالف المعتزلة مذهب الإمامية نراه يرد معتقدتهم ويجادلهم في ذلك جدالا عنيفا.

موقفه من التفسير الباطني:

والطبرسي مع أنه يفسر القرآن تفسيراً يتمشى مع الظاهر المتبادر إلى الذهن ووفق قواعد اللغة العربية فإنه يذكر المعاني الباطنية أو التفسير الرمزي الذي يقول به الشيعة ، وهو وإن كان ناقلا لهذه الأقوال إلا أنه يرتضيها ولا يرد عليها وكثيرا ما يؤيدها بأدلة من عنده، ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: " الله نور السماوات والأرض .."¹ حيث نقل بعد كلام طويل عن الرضا أنه قال: (نحن المشكاة فيه المصباح محمد صلى الله عليه وسلم يهدي الله لولايتنا من يحب..

والخلاصة أن الطبرسي وإن ألفت هذا التفسير لخدمة مذهبه الشيعي إلا أنه ظهر معتدلا على غير عادة أئمة مذهبه، بحيث لا يكاد القارئ لتفسيره يقف على قول له يكفر فيه أحدا من الصحابة أو يطعن في اعتقادهم ، كما لم يذهب مذهب من غالى في شخص علي رضي الله عنه بأشياء خارجة عن العادة اللهم إلا قوله بعصمته.

¹ . سورة النور ، الآية: 35.

التفسير الفقهي للقرآن الكريم

مقدمة

يعتبر التفسير الفقهي من أقدم أنواع التفسير ظهوراً، حيث بدأ ظهوره مع النشأة الأولى للتفسير بالمأثور، ويتضح هذا من خلال ما روي عن غير واحد من الصحابة أنهم كانوا إذا تعلموا العشر آيات من القرآن لا يجاوزونها حتى يعرفون ما فيها من العلم والعمل¹، وكان من الطبيعي أن يهتم المسلمون بالجانب الفقهي في التفسير في مرحلة مبكرة غير أنه كان مزيجاً مع غيره من التفسير في مرحلة الرواية، ولم يستقل بمنهجه ومعالجه المميزة له إلا بعد ظهور المذاهب الفقهية لكبار الأئمة المجتهدين كالإمام أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل ومن تفقه على أيديهم من تلامذتهم، وهنا بدأت تظهر مرحلة التنظير الفقهي في الفقه وأصوله، وبدأ أتباع المذاهب الفقهية في تخريج الأصول على الفروع ورد المسائل إلى أصولها وأدلتها من الكتاب والسنة، فاتجه أتباع كل مذهب من الأئمة إلى وضع تفاسير لآيات الأحكام على مذاهبهم، وبيان وجه الاستدلال على كل مسألة فقهية من النصوص الشرعية، مما أدى إلى ظهور مؤلفات في التفسير الفقهي للقرآن الكريم، ومن هنا نشأ التأليف في التفسير الفقهي . في الغالب الأعم . في أحضان الفقه المذهبي وتلون بألوانه، وفيما يأتي تعريف بأهم المؤلفات التي تعبر عن هذا الاتجاه في التفسير، وقد عرفت باسم كتب أحكام القرآن.

1 . أحكام القرآن

للجصاص الحنفي (305 . 370هـ)

التعريف بالمؤلف

هو أبو بكر ، أحمد بن علي الرازي، المشهور بالجصاص، ولد ببغداد وكان غما الحنفية في وقته وإليه انتهت رئاسة الأصحاب، تفقه على فقهاء عصره واستقر مدرسا ببغداد، وانتهت إليه الرحلة ، له عدد من المؤلفات المشهورة منها كتاب في أصول الفقه وشرح الجامع الكبير لتلميذ

¹ . السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن،ص: 855.

أبي حنيفة وهو الإمام محمد بن الحسن الشيباني، وقد عرف أكثر بكتابه "أحكام القرآن"، وكان على طريق شيخه أبي الحسن الكرخي في الزهد مع شيء يسير من الاعتزال¹.

التعريف بكتابه "أحكام القرآن"

يعد هذا التفسير من أهم كتب التفسير الفقهي، وبخاصة عند الحنفية، لأنه يقوم على خدمة مذهبهم والترويج له، بل والدفاع عنه، وهو يعرض لسور القرآن كلها على الترتيب، ولكنه لا يتكلم إلا على الآيات التي لها تعلق بالأحكام فقط، وهو وإن كان مرتبا على ترتيب القرآن الكريم، فإنه درج على وضع عناوين لأبحاثه تشبه ما هو معروف في كتب الفقه وتبويبها، كما أنه يستطرد كثيرا لأبحاث قد لا يكون مدخل تحت الآية التي هو بصدد تفسيرها، ويعرج على مسائل الخلاف بين الأئمة مما جعل كتابه أشبه بكتب الفقه المقارن.

تعصبه لمذهبه الحنفي

غلبت على الإمام الجصاص روح التعصب لمذهبه الحنفي، مما جعله يتكلف أحيانا في رد الآيات حتى يجعلها في جنابه، أو يجعلها غير صالحة للاستشهاد بها عند مخالفته، فنجد مثلا في تفسير قوله تعالى من سورة البقرة: "...ثم أتموا الصيام إلى الليل.." ² نجده يحاول بتعسف ظاهر أن يجعل الآية دالة على أن من دخل في صيام التطوع لزمه إتمامه.

وفي تفسير قوله تعالى: "وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن.." ³ نجده يحاول أن يستدل بالآية من عدة وجوه على أن للمرأة أن تعقد على نفسها في الزواج من غير ولي ومن دون إذنه.

وقد حمله تعصبه لمذهبه على التطاول على مخالفته من الأئمة والعلماء، فكان أحيانا يسم كبار المجتهدين بعبارات شديدة لا تليق بعالم مثله، مما حدا بالعلماء في المذاهب الأخرى بالرد عليه من جنس بضاعته.

¹ . طبقات المفسرين للداودي 55/1، والبداية والنهاية لابن كثير 279/11، ومعجم المفسرين 48/1.

² . سورة البقرة، الآية: 186.

³ . سورة البقرة، الآية: 230.

وعلى الرغم من هذه النقائص وغيرها فالكتاب يظل مشهورا ومنتشرا بين طلبة العلم ، وهو مطبوع ومتداول منذ مدة.

2 . أحكام القراءان

لكيا الهراسي الشافعي (450 . 504هـ)

التعريف بالمؤلف

هو عماد الدين ، أبو الحسن علي بن محمد الطبري، المعروف بالكيا . وهو بالأعجمية الكبير القدر. الهراسي ، رحل في طلب العلم فطاف بخراسان ونيسابور وبيهق وبغداد أين استقر وتفرغ للتدريس حتى توفي بها، كان فصيح العبارة بارعا في الفقه والحديث، وهو فقيه شافعي ، أصولي ، متكلم، مفسر، من كتبه التي اشتهر بها "أحكام القراءان"¹.

التعريف بنفسه

يعد هذا الكتاب من أهم المؤلفات في التفسير الفقهي عند الشافعية، وذلك لأن مؤلفه شافعي المذهب، ولا يقل في تعصبه لمذهبه عن الجصاص بالنسبة للمذهب الحنفي، فكان الكتاب محاولة لربط آراء المذهب الفقهية بأدلتها من الكتاب، مع الرد على المخالفين، وفي هذا يصرح المؤلف بقوله:(إن مذهب الشافعي رضي الله عنه أسد المذاهب وأقومها، وأشدّها وأحكمها ، وإن نظر الشافعي في أكثر أحكامه ومعظم أبحاثه يترقى عن حد الظنون والتخمين إلى درجة الحق واليقين ، والسبب في ذلك أنه بنى مذهبه على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وأنه أتيح له درك غوامض معانيه، والغوص على تيار بجره لاستخراج ما فيه ، وأن الله تعالى فتح له من أبوابه ما لم يسهل لمن سواه ، ولم يتأت لمن عداه.)

وقد صرح بالباعث على تأليف هذا الكتاب فقال:(ولما رأيت الأمر كذلك . يريد رجحان مذهب الشافعي على غيره . أردت أن أصنف كتابا في أحكام القراءان، أشرح ما ابتدعه

¹ كشف الظنون: 20، وهديّة العارفين بأسماء المؤلفين: 694/1، وطبقات السبكي، ومعجم المفسرين: 376/1.

الشافعي رضي الله عنه من أخذ الدلائل من غوامض المسائل، وضممت إليه ما نسجته على منواله، واحتذيت فيه على مثاله، على قدر طاقتي وجهدي ، ومبلغ وسعي وجددي.¹

غير أن الهراس كان عف اللسان والقلم مع المخالفين لولا أنه كان قاسي العبارة شديد المراس مع الجصاص الحنفي، حيث عرض لأهم مواضع الخلاف التي ذكرها الجصاص في تفسيره، ثم كر عليه وجادله بعنف وأورد حججا يسلّم له في الكثير منها بالصحة والصواب.

والمؤلف يتعرض لآيات الأحكام فقط، مع استيفاء ما في جميع السور، والكتاب مطبوع في مجلدين، ومتداول بين طلبة العلم.

3 . أحكام القرءان

لابن العربي المالكي (468 . 543هـ)

التعريف بالمؤلف

هو القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله، المعافري، الأندلسي، الاشبيلي، المغربي ، الإمام العلامة المتبحر، ختام علماء الأندلس، كان أبوه من فقهاء الأندلس ورؤسائها ، نشأ في الأندلس، وتآدب بها ثم رحل إلى المشرق، فجمع بين الفقه والتفسير والحديث والقراءات وغيرها، إلى جانب الأدب والشعر، ثم عاد إلى بلده إشبيلية بعلم كثير ، وهو صاحب تصانيف كثيرة، في الفقه والأصول، والتفسير والسير، وكان من أشهر مؤلفاته كتابه "أحكام القرءان"².

التعريف بتفسيره

يتعرض هذا الكتاب لسور القرءان كلها، ولكنه لا يتعرض إلا لما فيها من آيات الأحكام فقط، وطريقته في ذلك أن يذكر السورة ثم يذكر عدد ما فيها من آيات الأحكام ، ثم يأخذ في شرحها آية آية، مع ذكر كل آية وعدد المسائل المتعلقة بها، وقد نص على معالم منهجه في

¹ . الكيا الهراسي، أحكام القرءان، دار الكتب العلمية ، لبنان، ط2 ، 1985، ص:2.

² ، نفع الطيب : 25/2، والبداية والنهاية:228/12، ومعجم المفسرين:558/2.

مقدمة تفسيره، وذكر أن كتابه يقوم على التدقيق والتحقيق، والإيجاز وتحري ما هو صحيح، وطرح ما سواه¹.

ويعد الكتاب مرجعا مهما للتفسير الفقهي عند المالكية، وذلك أن هذا المفسر مالكي المذهب، فكانت ميوله المذهبية بادية، وإعجابه بالإمام مالك وخصاله ومناقبه لا تخفى، غير أنه كان ينصف المذاهب الأخرى في الغالب، وينتصر لمذهبه المالكي أطوارا أخرى.

فمن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى من سورة النساء: "فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا"² حيث ذكر أقوال الأئمة المجتهدين في تعيين معنى "ألا تعولوا" منها: ألا يكثر عيالكم، قاله الشافعي.. ثم قال ابن العربي: أعجب أصحاب الشافعي بكلامه هذا، وقالوا هو حجة، لمنزلة الشافعي في اللغة وشهرته في العربية، والاعتراف له بالفصاحة حتى لقد قال الجويني: هو أفصح من نطق بالضاد، مع غوصه على المعاني ومعرفته بالأصول.. واعتقدوا أن معنى الآية: فانكحوا واحدة إن خفتم أن يكثر عيالكم، فذلك أقرب إلى أن تنتفي عنكم كثرة العيال.. ثم قال ابن العربي: كل ما قاله الشافعي، أو قيل عنه، أو وصف به، فهو جزء من مالك أو نغمة من بحره، ومالك أوعى سمعا، وأثقب فهما، وأفصح لسانا، وأبرع بيانا، وأبدع وصفا، ويدلك على ذلك مقابلة قول بقول في كل مسألة وفصل.. والفعل في كثرة العيال رباعي، لا مدخل له في الآية فقد ذهبت الفصاحة، ولم تنطق الضاد المنطوق بها على الاختصاص³.

وقد جاء تفسير ابن العربي غزير المادة، بعيدا عن الحشو والاستطراد، خاليا من الإسرائيليات والموضوعات والأحاديث الضعيفة والواهية، والكتاب مطبوع أكثر من مرة، وشهرته بين طلبة العلم واسعة.

¹ . أبو بكر بن العربي، أحكام القرآن، تح: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، لبنان، 13/1.

² . سورة النساء، الآية: 3

³ . ابن العربي، أحكام القرآن: 314/1.

4 . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي المالكي (ت: 671هـ)

التعريف بالمؤلف

هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح ، الأنصاري ، الخزرجي ، الأندلسي ، القرطبي المفسر، كان رحمه الله من خيار الصالحين ، والعلماء العرفين والزاهدين ، كانت أوقاته كلها معمورة بالعبادة أو طلب العلم أو نشره بين الناس، وله مصنفات كثيرة ، بعضها موجود والبعض الآخر مفقود، وأشهر كتبه على الإطلاق تفسيره الموسوم بالجامع لأحكام القرآن، وهو موسوعة في التفسير الفقهي للمذهب المالكي ولغيره من المذاهب السنية الأخرى، ولا يكاد يوجد له نظير أو منافس في هذا الباب، وعلى الرغم من مكانة الرجل العلمية وشهرة كتابه إلا أنه عاش مغمورا، وقد سكتت كتب التراجم عن مراحل كثيرة من حياته، فلا يعرف عن حياته إلا القليل، وكل ما نعرفه عنه أنه رحل إلى مصر ، وأقام بها إلى أن مات سنة: 671هـ¹.

التعريف بتفسيره

وصف العلامة ابن فرحون هذا التفسير بقوله: (هو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة ، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ..²)

وقد فصل القول في منهجه الذي سار عليه في مقدمة كتابه، ووفى بهذا المنهج والتزم بما شرط على نفسه إلى درجة كبيرة، فهو يعرض لذكر أسباب النزول والقراءات والإعراب ، والناسخ والمنسوخ، ويبين الغريب من الألفاظ، ويحتكم كثيرا إلى اللغة، ويكثر من الاستشهاد بأشعار العرب على طريقة الإمام الطبري في تفسيره، ويرد على المعتزلة والقدرية، والروافض والفلاسفة وغلاة الصوفية ، كما ينقل عن السلف كثيرا مما أثر عنهم في التفسير والأحكام، مع نسبة كل

¹ . طبقات المفسرين للسيوطي: 28، ونفح الطيب: 210/2، وكشف الظنون: 534، ومعجم المفسرين: 479/2.

² . الديباج: 308/2.

قول لقائله، وينقل عمن سبقه من المفسرين بأمانة، ويناقش ما ينقل بوعي وبصيرة وإنصاف، و كان من مظاهر إنصافه . رحمه الله . أنه يقف موقف المدافع عمن يهاجمهم ابن العريم المخالفين، مع توجيه اللوم إليه أحيانا على ما يصدر منه من عبارات قاسية في حق علماء المسلمين المخالفين له في الرأي والاجتهاد.

وأما في جانب الأحكام ، وهو المقصد من الكتاب ، فهو يفيض في ذكر مسائل الخلاف ويوفيهما بحثا وتحليلا، من غير تعصب لمذهبه الملكي ، بل يميل مع الدليل والبرهان حيث كان مهما كان قائله، مما زاد في مصداقية هذا التفسير وقبوله بين طلبة العلم، والكتاب مطبوع في موسوعة ضخمة أكثر من مرة ، كما توجد له مختصرات قيمه ولكنها لا تغني عن أصل الكتاب للباحثين وطلبة العلم.

فهذه أشهر كتب التفسير الفقهي للقرءان الكريم، وتوجد كتب أخرى في هذا الباب لبعض الفرق الكلامية كالشيعة وغيرهم سكتنا عنها لأن المجال لا يتسع لذلك، منها كتاب "كنز العرفان في فقه القرءان" لمقداد السيوري، من الإمامية الإثناعشرية، وهو من أعيان القرن الثامن الهجري، وكتاب "الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة" ليوسف الثلاثي الزيدي من أعيان القرن التاسع الهجري.

التفسير الباطني والإشاري للقرءان الكريم

هناك نوعان من التفسير في هذا الباب، فالتفسير الباطني ينسب لأرباب النحل الفاسدة والمذاهب الزائغة الذين تبنا آراء شاذة في فهم الدين والملة ثم أرادوا أن يحملوا نصوص الكتاب عليها ، ولما وجدوا أن هذه النصوص لا يوافق ظاهرها ومدلولها العربي دعواهم زعموا أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وأن المقصود من القرءان الكريم هو الباطن دون الظاهر وأن هذا الباطن لا يجري على قواعد اللسان العربي التي تعارف عليها أهل العلم والبيان ، وإنما تنكشف لمن خصه الله تعالى واصطفاه لهذا الشأن دون غيره من الناس.

فهذا هو التفسير الباطني للقرآن الكريم إجمالاً، وقد تطلق عليه أسماء أخرى، منها التفسير الصوفي النظري، ومنها التفسير الرمزي، والتفسير الفلسفي وغيرها، وينتشر مثل هذا الاتجاه في التفسير عند غلاة الشيعة والصوفية والفلاسفة ومن حدا حدوهم.

وأما التفسير الإشاري فلا يركز في الغالب على آراء سابقة ولا مقررات ابتدائية، بل يقوم على رياضة روحية يأخذ الصوفي بها نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجف العبارات هذه الإشارات القدسية، وهو لا يرى أن هذه المعاني التي دلت عليها آيات القرآن بالإشارة أنها المقصودة وحدها، بل يرى أن المعنى الظاهر للآية هو السابق والمقدم، ولكن الآية - إلى جانب ذلك - تحتل هذه اللطائف والأسرار التي تنكشف لأهل الذوق، وأن هذه المعاني الخفية لا يقتصر في الكشف عنها شخص دون شخص آخر، بل هي ميسرة لكل من سلك طريق هذه الرياضة الروحية.

والحقيقة أن التفسير الإشاري بهذا المفهوم لا غبار عليه، ولا يقوم دليل شرعي على رده وإبطاله، ذلك أن علماء أصول الفقه قد أجمعوا على أن نصوص القرآن الكريم تحمل دلالة العبارة كما تحمل دلالة الإشارة، وهذه الإشارة قد تكون فقهية، وقد تكون عقديّة، وقد تكون روحية أخلاقية، وقد تكون علمية، وقد تكون تاريخية، وكل إشارة يفهمها أهل الرسوخ والاختصاص في اختصاصهم.

وقد دل على شرعية التفسير الإشاري بعض الآثار الواردة عن الصحابة ومن جاء بعدهم من السلف، فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فهم من قوله تعالى: "إذا جاء نصر الله والفتح"¹ حلول أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووافق عمر رضي الله عنه على ذلك، بينما قال غيرهم من الصحابة: أمرنا أن نحمد الله تعالى ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا.

ومنها ما ورد في تفسير قوله تعالى: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً"² أن الصحابة فرحوا أيما فرح بنزولها، إلا أن عمر رضي الله عنه

¹ . سورة النصر، الآية:1

² . سورة المائدة، الآية: 4.

حزن وبكى، وقال : ماذا بعد الكمال إلا النقص، مستشعرا قرب أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد أخرج ابن أبي شيبة أن عمر رضي الله عنه لما نزلت الآية بكى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما يبكيك؟ قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا ، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص ، فقال عليه الصلاة والسلام: صدقت¹.

وواضح من هذه الأمثلة وغيرها أن الناس يتفاوتون في إدراك هذه المعاني الخفية على قدر علمهم وما خص الله به كل واحد منهم من البصيرة والفهم، كما لا يعني أن كل المعاني التي فهموها بالإشارة أنها تكون صائبة وصحيحة بالضرورة، ولكن يكفي أن يكون المنهج سليما والإدعاء عليه دليل وبرهان، وإلا فإنّ كل مفسر للقرآن يخطئ ويصيب سواء تعلق في تفسيره للقرآن بدلالة العبارة أو دلالة الإشارة.

ونذكر من نماذج التفسير الباطني المرفوض ما ينسب لمحي الدين بن عربي المتوفي سنة: 638هـ²، فهو تفسير جرى فيه صاحبه من غير ضابط من اللغة أو الشرع، والكتاب رغم شهرته وتداوله بين الناس، فهو تفسير باطل ومردود على من قال به، وقيل إن هذا التفسير المطبوع والمنسوب لابن عربي مدسوس عليه³، وأن مؤلفه الحقيقي زنديق اسمه "الكاشاني" أو "القاشاني" والذي يهمنا هو رد الكتاب وما تضمنه من ضلالات في المنهج والمحتوى بغض النظر عن مؤلفه.

¹ . انظر روح المعاني للألوسي: 60/6.

² . هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائفي الأندلسي، المعروف بمحيي الدين بن عربي، وهو غير أبي بكر بن العربي المالكي، صوفي، عرف بمذهبه في وحدة الوجود، درس بقرطبة وقام برحلة إلى بجاية والمغرب ومصر والحجاز والشام وغيرها ، وأنكر عليه أهل مصر آراءه ، وهدروا دمه، فخرج إلى دمشق واستقر بها إلى أن مات سنة: 638هـ . انظر في ترجمته: طبقات المفسرين للسيوطي: 38، والبداية والنهاية لابن كثير : 156/13، ومعجم المفسرين: 581/2.

³ . وقد أكد هذا الظن محمد حسين الذهبي في بعض أبحاثه بجملة من القرائن القوية بأن هذا التفسير يرجع لمؤلفه الحقيقي عبد الرزاق جمال الدين الكاشي السمرقندي المتوفي سنة: 730هـ . انظر الذهبي : يبحوث في علوم التفسير والفقهاء والدعوة ، دار الحديث ، القاهرة، ط 2005م ص: 231.

كما نذكر من كتب التفسير الإشاري . وهو مقبول . كتاب "حقائق التفسير" لأبي عبد الرحمن السلمي المتوفى سنة: 412هـ¹ وكتاب "عرائس البيان في حقائق القرآن" لأبي محمد الشيرازي المتوفى سنة: 666هـ وكتاب "لطائف الإشارات" للإمام القشيري² ، وهي كلها مطبوعة ومتداولة بين طلبة العلم ، وفيها ما هو شبيه بالصواب وما هو دون ذلك.

التفسير العلمي للقرآن الكريم

تعد النزعة العلمية في تفسير القرآن الكريم فكرة قديمة في تاريخ التفسير، حيث أن التطلع إلى البحث في القرآن الكريم عن تفسير بعض الظواهر الكونية ظهر مبكرا منذ عصر التنزيل، ونلاحظ هذا في سؤال بعض الصحابة لنبيهم الكريم عن الأهله، فقد ذكر الطبري وغيره في تفسير قوله تعالى: "يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج.." ³ أن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . سئل عن زيادة الأهلة ونقصانها واختلاف أحوالها، فأنزل الله تعالى ذكره هذه الآية جوابا لهم فيما سألوا عنه، وذكر الطبري في ذلك أخبارا وآثارا، ثم فسر الآية في ضوء سبب نزولها فقال: (فتأويل الآية إذا كان الأمر على ما ذكرنا عمن ذكرنا عنه قوله في ذلك: يسألونك يا محمد عن الأهلة ومحاقها وسرارها وقامها واستوائها، وتغير أحوالها بزيادة ونقصان ومحاق واستسرار، وما المعنى الذي خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة أبدا على حال واحدة لا تتغير بزيادة ولا نقصان، فقل يا محمد خالف بين ذلك ربكم .. مواقيت لكم ولغيركم من بني آدم في معاشهم.)⁴

¹ . هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السلمي النيسابوري، شيخ الصوفية وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم، كتب الحديث، وبلغت تأليفه أكثر من المائة، له كتاب "حقائق التفسير" على طريقة أهل التصوف. انظر ترجمته في طبقات المفسرين للسيوطي: 31، وكشف الظنون: 673، وطبقات المفسرين للدودي: 137/2.

² . هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري اقلقشيري، أبو القاسم ، زين الإسلام، عالم بالفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والتصوف، رحل إلى بغداد والحجاز له أكثر من كتاب في التفسير، منها تفسيره على طريقة الصوفية "لطائف الإشارات" ، مطبوع في ستة أجزاء، توفي سنة: 465. انظر ترجمته في : طبقات المفسرين للسيوطي: 21، وطبقات الشافعية للسبكي: 153/5، وكشف الظنون: 520.

³ . سورة البقرة ، الآية: 188.

⁴ . الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 1 / 253.

بل نجد الطبري (ت: 310هـ) وهو رائد مدرسة التفسير بالمأثور تستوقفه كثير من الآيات التي فيها إشارات علمية، فيستعرض فيها أقوال السلف من الصحابة والتابعين التي توحى بتطلعهم للتفسير العلمي لهذه الآيات، فيسهب الطبري في سردها، ثم يتخير منها ما يراه متجها إلى معنى الآية، ومن الآيات التي وقف عندها الطبري وأشار من خلالها إلى النواة الأولى للتفسير العلمي عند السلف ما يأتي:

1. "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما.."1

2. "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون"2

3. "وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون"3

4. "وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول"4

ومن هنا فإن دعاء هذا الاتجاه في التفسير قد رفعوا لواءه في مختلف القرون، ونذكر منهم أبا حامد الغزالي (ت: 505هـ) في كتابه إحياء علوم الدين الذي قرر (أن هذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها، والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن، وبمجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك، بل كل ما أشكل فيه على النظر واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات يختص أهل الفهم بدركها)5

ثم أكد هذا الرأي في كتابه "جواهر القرآن" وتابعه على ذلك أبو الفضل المرسي6 الذي ذكر أن (القرآن قد جمع علم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم به، ثم

1 . سورة الأنبياء ، الآية: 30.

2 . سورة الأنبياء ، الآية: 30.

3 . سورة الأنبياء ، الآية: 31.

4 . سورة الفيل، الآيات: 4 . 6.

5 . أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار عالم الكتب: 260/1.

6 . هو محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل السلمي المرسي الأندلسي ، ولد سنة: 570هـ ورحل إلى مصر والحجاز والعراق وخراسان ، ثم عاد إلى دمشق ، مات وهو في طريقه إلى الشامعام: 655هـ، من آثاره: " ري الضمان في تفسير القرآن. انظر في ترجمته: طبقات المفسرين للسيوطي: 35، وبغية الوعاة في طبقات النحاة له أيضا : 144/1.

رسول الله . صلى الله عليه وسلم . خلا ما استأثر الله تعالى بعلمه . ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم .¹

ولما جاء السيوطي (ت: 911هـ) في القرن التاسع أحيا هذا الاتجاه، حيث عقد بابا في كتابه الإتيقان تحت عنوان " العلوم المستنبطة من القرآن وهو النوع الخامس والستون " فقال فيه (وأنا أقول قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السموات والأرض وما في الأفق وتحت الثرى .)²

واستمرت فكرة اشتمال القرآن على جميع العلوم إلى عصرنا، ومعتمد العلماء فيها هو معتمد السيوطي ومن هم على رأيه، ولكن الأهداف تنوعت، فلئن كان إبراز جانب الإعجاز هو أساس الفكرة عند الأقدمين، فقد أضاف إليه المعاصرون جانبا دفاعيا عن القرآن لتبرئة ساحته، ورفع مسؤولية الانحطاط الذي آل إليه حال الأمة الإسلامية في أكثر من جانب.

غير أن أنصار التفسير العلمي للقرآن الكريم في القديم والحديث لم يكونوا على درجة واحدة، بل كان منهم المعتدلون الذين أثبتوا ذكر القرآن لبعض العلوم بما يمكن أن تكون دليلا آخر يضاف إلى دلائله الإعجازية، وكان منهم المتحمس الذي حاول تحميل القرآن الكريم ما ليس منه، فحزم بأن القرآن الكريم هو مصدر كل العلوم، وهو ما حمل فريقا من العلماء على الرفض والإنكار لهذا النوع من التفسير، فأسرفوا في القول بفساده وبطلانه عندما لم يميزوا بين الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم كشاهد على عظمة الخالق، وبين غيرها من العلوم التي عرفها الناس وأراد هذا الفريق المتحمس أن يجد لها سندا من كتاب الله تعالى . ومن الحجج التي اعتمدها المعارضون على التفسير العلمي للقرآن الكريم ما يأتي :

1 . الشبهة الأولى وتستند إلى ما ذهب إليه أبو إسحاق الشاطبي (ت: 780هـ) في كتابه "الموافقات" في كلامه عن موضوع علم التفسير حيث قال : (. علم التفسير مطلوب فيما

¹ . الذهبي ، التفسير والمفسرون: 278/2.

² . السيوطي ، الإتيقان ، طبعة دار عالم الكتب، بيروت، 125/2.

يتوقف عليه فهم المراد من الخطاب، فإذا كان المراد معلوما فالزيادة عليه تكلف، ويتبين ذلك في مسألة عمر لما قرأ "وفاكهة وأبا"¹ توقف في معنى الأب، وهو معنى إفرادي لا يقدر في علم المعنى التركيبي للآية.. فبقي التفصيل في كل فرد من تلك الأفراد فضلا، فلا على الإنسان ألا يعرفه .

ولما كان السؤال في محافل الناس عن معنى " والمرسلات عرفا .. "² مما يشوش على العامة من غير بناء عمل عليه أدب عمر "ضبيعا" . السائل . بما هو مشهور، فإذن تفسير قوله تعالى : " أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها .. "³ الآية، بعلم الهيئة الذي ليس تحته عمل غير سائغ، ولأن ذلك من قبيل ما لا تفهمه العرب، والقرآن إنما نزل بلسانها وعلى معهودها.⁴ (وكذلك القول في كل علم يعزى إلى الشريعة لا يؤدي فائدة عمل، ولا هو مما تعرفه العرب، فقد تكلف أهل العلوم الطبيعية وغيرها الاحتجاج على صحة الأخذ في علومهم بآيات من القرآن وأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما استدل أهل العدد بقوله تعالى: " فاسأل العادين "⁵، وأهل الهندسة بقوله تعالى: " أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها "⁶ وأهل التعديل النجومى بقوله: " الشمس والقمر بحسبان "⁷ وجميعه يقطع بأنه مقصود لما تقدم، وبه تعلم الجواب عن السؤال الرابع، وأن قوله: " أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء "⁸ لا يدخل فيه من وجوه الاعتبار لعلوم الفلسفة التي لا عهد للعرب بها، ولا يليق بالأميين الذين بعث فيهم النبي الأمي . صلى الله عليه وسلم . بملء سهولة سمحة، والفلسفة على فرض أنها جائزة الطلب، صعبة المآخذ وعرة المسالك بعيدة الملتمس، لا

1 . سورة عبس، الآية: 31.

2 . سورة المرسلات ، الآية: 1.

3 . سورة ق، الآية: 6.

4 . الشاطبي ، الموافقات في أصول الأحكام، دار إحياء التراث العربي، القاهرة: 26/1.

5 . سورة المومنون، الآية: 114.

6 . سورة الرعد، الآية: 3.

7 . سورة الرعد ، الآية: 3.

8 . سورة الأعراف ، الآية : 185.

يليق الخطاب بتعلمها كي تتعرف آيات الله ودلائل توحيده للعرب الناشئين في محض الأمية، فكيف وهي مذمومة على ألسنة أهل الشريعة منبه على ذمها.¹

و يتبين مما سبق أن ما ينسب للشاطبي من اعتراضه على التفسير العلمي بحجة أن السلف لم يعرفوا هذا النوع من التفسير هو قول غير مسلم به من عدة وجوه:

منها أن الاحتجاج على فساد التفسير العلمي بكون الجيل الأول من الصحابة والتابعين لم يعرفوا هذا النوع من التفسير لا ينهض كدليل كاف على ما ذهبوا إليه لأن مختلف العلوم الشرعية لم تكتمل في صورتها النهائية في هذا العهد، ولم يقل أحد بأن تفسير القرآن إنما هو مقصور على هذا العهد، وإلا كان التفسير بالرأي بكل ألوانه باطلا، وكان الأمر بالتدبر للقرآن الكريم مقصورا على جيل دون جيل، فلا شك أن السلف فسروا من القرآن ما دعت إليه حاجتهم، وإنما كانت لهم مجرد إشارات مختصرة، وقد كان أغلب تفسير الصحابة والتابعين يتميز بالإيجاز والاختصار في هذا الجانب وغيره من الفقه والعقيدة، كما يتبين أن النقل عن الشاطبي بأنه رفض التفسير العلمي للقرآن الكريم . من غير تفصيل . هو نقل غير دقيق، وإنما اعتبر الزيادة في التفسير عن المعنى المراد تكلفا فقال: (إن علم التفسير مطلوب فيما يتوقف عليه فهم المراد من الخطاب، فإذا كان المراد معلوما فالزيادة على ذلك تكلف).

ثم صرح برفضه لتفسير القرآن الكريم بالعلوم التي كانت قائمة في الأغلب الأعم على الظن الفاسد والخرافة، ومثل لذلك بالفلسفة التي لا تليق أصلا أن تلمس، بل لا يليق الخطاب بتعلمها كي تتعرف آيات الله ودلائل توحيده للعرب الناشئين في محض الأمية، فكيف وهي مذمومة على ألسنة أهل الشريعة منبه على ذمها ..

وهذه العلوم المذمومة والتي يرجح فسادها لا يصح تعلمها فضلا عن اعتمادها في تفسير القرآن الكريم، وبذلك قال أبو حامد الغزالي . وهو من أنصار التفسير العلمي للقرآن الكريم .

¹ . الموافقات: 27/1.

وفي ذلك يقول في تصنيف العلوم: (.. والرابع الطبيعيات، وبعضها مخالف للشرع والدين الحق، فهو جهل وليس بعلم حتى يورد في أقسام العلوم)¹

ويتلخص من عرض رأي الشاطبي في هذه المسألة أنه لا ينهض كحجة قوية على فساد التفسير العلمي القائم على ضوابط التفسير بالرأي المحمود، وإنما يمكن إدراج رأيه في الاعتراض على تفسير القرآن بالرأي المذموم، وهذا لا يختلف أهل العلم في فساده وبطلانه.

2 . والشبهة الثانية أن القراءان الكريم موجه إلى عموم الناس، بينما يتوجه العلم إلى أهل الاختصاص، لذلك لا يعتمد في الحقائق القراءانية إلا على المشاهد والأمور القريبة من الإدراك. ولرد هذه الشبهة نقول: إن توجه القراءان الكريم إلى عموم الناس لا يستلزم خلوه من هذه العلوم التي يعود فهمها إلى أهل الاختصاص، لأن كثيرا من المطالب العلمية التي هي في القراءان الكريم ليست من العلوم الكونية والطبيعية ولكن لا يفهمها عموم الناس، بل يجب أن يعودوا في فهمها إلى الراسخين في العلم لقوله تعالى: "ولو رده إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم"² ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: (التفسير أربعة أقسام: قسم لا يعذر أحد بجهله، وقسم تعرفه العرب من لغتها، وقسم تعرفه العلماء، وقسم استأثر الله تعالى بعلمه ..)³ ولقد مدح القراءان الكريم الذين يشتغلون بالتفكر في خلق هذه الأكوان، لأن في ذلك ما يدل على حكمة الخلق وعظمة الخالق .

3 . وقالوا في الشبهة الثالثة: إن القرآن الكريم يخاطب النفوس بينما يخاطب العلم العقول، فكانت الأهداف في القراءان نفسية وجدانية مطيتها التأمل المتدين والاعتبار النفسي، بينما لا تهدف العلوم إلى شيء من ذلك ..

إن هذا الاعتراض هو الآخر لا يصح من عدة وجوه، فالقول بأن القراءان الكريم يخاطب النفوس بينما يخاطب العلم العقول غير مسلم به، إذ الثابت بالاستقراء من القراءان الكريم أن الله تعالى خاطب العقول مثلما خاطب النفوس، بل إن الخطاب المتوجه إلى العقول في القراءان

¹ . إحياء علوم الدين: 20/1.

² . سورة النساء، الآية: 82.

³ . الطبري ، جامع البيان: 54/1.

الكريم هو الغالب، لأن العقل شرط التكليف والإيمان، قال تعالى: "وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون"¹ وقال أيضا: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب.." ² بل كثيرا ما نص القرآن الكريم على أن التفكير طريق الإيمان، ولكن العوارض النفسية هي التي تقف عائقا دونه، ومن ذلك مثلا ما جاء في قوله تعالى: "قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة.." ³

ثم إن القرآن الكريم قد حث . ضمن ما حث به . على النظر والتأمل المتدين الذي يقود إلى معرفة عظمة الله وعلمه وحكمته التي تجلت في إحكام الصنع وإتقانه فقال: "وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء.." ⁴ بل إن دعوة أنصار التفسير العلمي للقرآن الكريم تتجه إلى جعل البحوث العلمية تنشأ وتنضج في محراب الإيمان، لتكون العلوم الشرعية والكونية تصب في مصب واحد مثلما يصدر شعاعها عن مشكاة واحدة، وهو ما دعا إليه القرآن في أول آية نزلت منه في قوله تعالى: "اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم" ⁵ فقد امتزجت الحقيقة العلمية في هذه الآيات بالحقيقة الإيمانية، وبدا كل منهما مكمل للآخر لا مناقضا له .

4 . وقالوا في الشبهة الرابعة: تتسم الحقائق في القرآن بالاستقرار، بينما تخضع النظريات إلى التغيير المستمر، لذلك يعرض التفسير العلمي القرآن إلى البلبله، ويفضي إلى النيل من قدسيته. وهذه فرضية غير صحيحة، ولا يقول بها الراسخون في العلم، بل إن العلماء اليوم يؤمنون بوجود حقيقة علمية ثابتة، والتطور لا يعدو أن يكون تدقيقا وتفصيلا في إطار الحقيقة الثابتة والمستقرة، فإذا اكتشف الناس في زمن ما أن الأرض كروية، وقلنا إن القرآن الكريم سبق إلى

1 . سورة العنكبوت، الآية: 43.

2 . سورة آل عمران ، الآية:190.

3 . سورة سبأ، الآية:46.

4 . سورة النمل ، الآية:90.

5 . سورة العلق ، الآيات: 5.1.

ذلك، ثم جاءت أبحاث لاحقة وقالت إن الأرض على شكل بيضة أو إحصاة، فإن هذا لم يبلغ الحقيقة الأولى، وإنما زادها بيانا وتدقيقا¹.

5 . وفي الشبهة الخامسة قالوا: لم يرد التفسير العلمي عن السلف، لذلك كانت الدعوة إليه دعوة إلى الانصراف عن التفسير الذي بلغنا عن مدرسة النبوة، وفي هذا ما فيه من تحويل وجهة المعاني القرآنية ومفهوم الإعجاز في القرآن كما قرره مدرسة النبوة، وفيه أيضا ما فيه من تجهيل للرسول . صلى الله عليه وسلم . والصحابة رضي الله عنهم بما أصبح عليه التفسير على ضوء العلوم المستحدثة التي لم تكن قد ظهرت في عصر النزول ولا بعده، كما أن في هذا التفسير تصرفا غير مشروع في اللفظ والبلاغة القرآنية، إذ تفسر فيه الألفاظ بمعان لم تكن قد اكتسبتها زمن النزول، ويفترض أن يكون المخاطبون ملمين بما لم يكن قد ظهر بعد من العلوم. ونقول إن الأخذ بالتفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم معناه تقديم تفسير زائد عن الحقائق الشرعية التي قررتها تلك الآيات، ولم يدع أحد أن معاني القرآن الكريم إنما هي محصورة فيما فسر به الرسول . صلى الله عليه وسلم . القرآن ولا فيما فسر به الصحابة والتابعون، بل الظاهر عند أهل العلم أن الرسول . صلى الله عليه وسلم . لم يفسر من القرآن الكريم إلا بالقدر الذي خفي عليهم مما وسعهم في حياتهم يومئذ، ولو قلنا بذلك لقلنا بمنع التفسير القائم على الرأي والاجتهاد بكل ألوانه، وقلنا ببطلان الاجتهاد أصلا، ولكانت كل العلوم التي استنبطها المتأخرون من القرآن لاغية وباطلة .

كما أنه لا تلازم بين الأخذ بالتفسير العلمي للقرآن الكريم وبين الانصراف عن التفسير الصادر عن مدرسة النبوة، ولم نجد من أنصار التفسير العلمي من قال بذلك، ولو وجد لكان قوله مردودا عليه، لأن التفسير بالمأثور مما صح رفعه إلى الرسول . صلى الله عليه وسلم . أو وقفه على كبار الصحابة والتابعين كان متعلقا ببيان الأحكام التكليفية المرادة من خطاب الشارع، ويشترط في التفسير العلمي السليم . مثلما يشترط في أي تفسير آخر . ألا يناقض أصول الأحكام الشرعية ومقاصد الدين العامة .

¹ . د/بشير تركي ، الله العلم، ص:82.

6 . وفي الشبهة السادسة قالوا: إن التفسير العلمي للقرآن تفسير طارئ، وهو وليد أحداث مستجدة في العصر الحديث نتجت عنها في المجتمعات الإسلامية تحديات قومية وحضارية تعود أساسا إلى انبهار الشرق بما بلغه الغرب من تقدم علمي وراقي حضاري، لذلك سعى القائلون بالتفسير العلمي للرد على هذه التحديات، وللتنويه بالقرآن في إعجازه ومفهوم صلاحيته لكل زمان ومكان سعوا إلى التأكيد على اشتغال القرآن على أسباب تفوق الغرب في العلوم الحديثة.

وقد بينا في ما سبق أن القول بأن التفسير العلمي للقرآن طارئ ومستحدث غير مسلم به، وأن الإشارة إلى شرعيته يمكن استمدادها من مقولة ابن عباس المشهورة في أنواع التفسير. فقول ابن عباس رضي الله عنهما التفسير أربعة أقسام: (قسم لا يعذر أحد بجهله، وقسم تعرفه العرب بلغتها، وقسم تعرفه العلماء، وقسم استأثر الله بعلمه) فيه أكثر من دلالة: منها أن آيات القرآن من حيث وضوح دلالتها ليست في درجة واحدة، فمنه ما تفهمه العامة، ومنه ما يعلو عن أفهامهم، فينبغي رده إلى أهله لقوله تعالى: "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"¹ وهو ما قرره علماء الأصول بأن آيات القرآن متفاوتة من حيث درجات وضوحها ودرجات غموضها.

ومنها أن معرفة لغة القرآن الكريم لا تكفي وحدها لمعرفة معاني كل آيات القرآن، فمنها ما تفهمه العرب من لغتها، ومنها ما يحتاج في فهمها إلى علوم أخرى، فأيات الأحكام تحتاج إلى معرفة بالفقه وأصوله، وآيات التوحيد تحتاج إلى معرفة بالعقيدة والتوحيد، وآيات القصص تحتاج إلى معرفة بالتاريخ والأخبار والمرويات، وكذلك الآيات المتعلقة بالظواهر الكونية فإن المفسر لها يحتاج إلى قدر من العلوم الكونية للوقوف على حقائقها.

ويتلخص من مجموع ما قدمناه أن الاعتراضات على التفسير العلمي للقرآن الكريم إنما هو اعتراض على النقائص والعيوب التي وقع فيها أصحاب هذا الاتجاه، وهذه النقائص والعيوب في الحقيقة لم ينفرد بها هذا الاتجاه وحده بين مختلف اتجاهات التفسير، بل لكل اتجاه عيوبه التي

¹ . سورة النحل ، الآية: 43.

علقت به، بل حتى اتجاه التفسير بالمأثور قد علقت به بعض العيوب والنقائص، مثل حذف الأسانيد، وشيوع الإسرائيليات، وكثرة الوضع في التفسير المنسوب لكبار الصحابة والتابعين، وعلى الرغم من هذه السلبيات فإن الواجب على أهل العلم هو العمل على تخلص التفسير بالمأثور من هذه العيوب، وليس العمل على التخلص من التفسير بالمأثور نفسه، ولو دعا داع إلى وجوب طرح التفسير بالمأثور لما علق به من عيوب لأنكرنا عليه بل وأسأنا الظن به، لما يترتب على دعوته من ضياع فوائد علمية كثيرة في هذا التفسير بالمأثور الذي اختلط فيه الغث بالسمين.

فالتفسير العلمي ضرب من التفسير بالرأي، وهو قريب من التفسير الإشاري الذي أقره العلماء بجملة من الضوابط منها :

- . ألا يتعارض ومقاصد الشريعة.
- . ألا يخالف ظاهر النص القرآني.
- . ألا يخالف قواعد اللغة.

- ألا يظن المفسر بأن تلك الحقيقة العلمية مقصودة لذاتها، ولكنه معنى زائد في الآية، فإن علماء السلف فهموا المعنى الهدائي والتكليفي من الآية، وهو المقصد الأساسي في أي القرآن، وهو ما دلت عليه الآية بالعبارة، وأن الحقيقة العلمية هو ما دلت عليه الآية بالإشارة¹، وإذا كانت الحقيقة العلمية قد دلت عليها مختلف الآيات بالإشارة، فإن المعنى الأولي للآية الذي دلت عليه العبارة لا يتأثر بفساد النظرية العلمية القائمة على الاجتهاد البشري، مثلما نعتبر المقاربة بين النظريات العلمية وبين ما دلت عليه الآيات القرآنية بالإشارة لا يعدو أن يكون نوعاً من الاجتهاد الذي هو من قبيل التفسير بالرأي، وأن التفسير بالرأي والاجتهاد ليس حجة ملزمة لأحد، بل يبقى قابلاً للبحث والنظر، فيصح الأخذ به مثلما يصح رده، وبذلك يمكن التفريق بين نسبة الخطأ للمفسر في اجتهاده وبين نسبة الخطأ للقرآن الكريم، أي أن الخطأ في

¹ . يقول العلامة ابن محمد الطاهر عاشور: (إن جلب المسائل العلمية في الآيات يكون على سبيل الاسترواح لا على سبيل القصد والغرض الأصلي للآية) انظر التفسير والتحرير: 42/1.

حقيقة الأمر وارد في اجتهاد المفسر في فهم النص القرآني، وليس واردا في القرءان نفسه، والأدلة على ذلك كثيرة:

من ذلك مثلا قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: "أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق.." ¹ بأن في الآية دليلا على بطلان قول من قال بأن مصدر المطر البحر وليس السماء كما يقول علماء الهيئة²، فالخطأ هنا وارد في فهم الزمخشري، وليس في مدلول الآية، فالآية لا تدل لا بالعبرة ولا بالإشارة على مصدر المطر كما توهم الزمخشري، والباحثون في التفسير العلمي إنما هم أولئك الذين نبغوا في هذه العلوم الكونية والتطبيقية، وليس بالضرورة هم علماء التفسير.

وهكذا فإننا بعد البحث والنظر نجد قول من قالوا بأن تحميل آيات القرءان الكريم لمضامين النظريات العلمية يجعل القرءان عرضة لطعن الطاعنين وتشكيك المشككين هو مجرد تحفظ ودعوى من غير دليل، وأن الذين أوردوا هذه الشبهة لم يوردوا مثلا واحدا على ما يقولون . وأكد موريس بوكاي على هذا المعنى عندما اعتبر أن هدف القرءان ليس أن يبسط القوانين التي يسير عليها العالم، بل أن يلفت الانتباه إلى عظمة القدرة الإلهية³.

وإلى هذا المعنى أشار الدكتور بشير تركي في قوله: (إن القرءان وحي إلهي لا ريب فيه، وإنه كتاب علم وهذا لا يعني أنه يحتوي على المعادلات الحسابية والنظريات العلمية، ولكنه يعني أنه نابع من روح العلم وجوهره، كما أن القرءان معجزة بلاغية فهذا لا يعني أنه يحتوي على قواعد البلاغة ولكنه يعني أنه نابع من روح البلاغة وجوهرها).⁴

ولا ننسى أن خصوم التفسير العلمي للقرءان الكريم إنما ارتسمت في أذهانهم صورة قائمة عن هذا الاتجاه من التفسير من خلال كتاب "الجواهر في تفسير القرءان" للعلامة طنطاوي

¹ . سورة البقرة ، الآية : 18 .

² . انظر تفسير الكشاف للزمخشري: 80/1 .

³ . موريس بوكاي ، التوراة والإنجيل والقرءان والعلم،ص:124 .

⁴ . بشير تركي ، لله العلم،ص:143 .

جوهري، فظنوا أنه النموذج الأوحى في هذا الباب، علما بأن تفسير طنطاوي جوهري قد انطوى على جملة من العيوب والنقائص، ونذكر منها:

1 . اعتماده التوراة والانجيل في تفسير آيات القرآن في حين نجده يعيب على القدامى ما أدخلوه في التفسير من إسرائيلييات.

2 . اعتماده بعض العلوم التي هي إلى الخرافة أقرب في كتابه كعلم تحضير الأرواح في كثير من المواطن.

3 . ميله إلى التفسير الباطني في فهم القرآن، حيث كان يعتبر التفسير الذي تدل عليه عبارة النص تفسيراً لفظياً قاصراً، ويجعل من الإشارات العلمية التي تلوح له من قريب أو من بعيد في النص القرآني هي جوهر تفسير الآية.

4 . سوغ لنفسه كثيراً من التأويلات البعيدة .

5 . اعتماده حساب الجمل، وهو حساب قائم على الرمز والقول بالباطن في الأرقام الحسابية.

6 . تحامله على علماء الإسلام بقسوة، واتهامهم بالتقصير والجهل وضيق الأفق في البحث والنظر، ومن ذلك قوله: (فالعالم الفقهي بفقهه مغرور، والعالم بالتوحيد مغرور، والصوفي مغرور، والعابد مغرور، وكل حزب اقتصر على شيء من الدين وشمخ بأنفه عن الباقي فهو مغرور، وما دين الإسلام إلا العلم والعمل، بكل ما يحتاج له المسلمون في كل زمان بحسبه كما فعل أهل أمريكا وغيرهم في الوقت الحاضر، فلا يكون قوم بسبب الدين عالة على قوم بل كل الناس متعاونون).¹

7 . مبالغته في الدعوة للاقتداء بالإفرنجة في ما صحح أو لم يصح من العلوم والتجارب.

8 . حصره سبب تخلف المسلمين في التخلي عن العلوم الكونية، وهناك أسباب ربما كانت سابقة عن هذا لتخلفهم .

9 . كثرة استطراده لحشد علوم وأخبار خرجت بكتابه عن مفهوم التفسير.

¹ . طنطاوي جوهري ، الجواهر في تفسير القرآن، 282/2.

10 . اعتباره لهذه الاستنباطات العلمية هي المقصد الأساسي الذي سيقى للدلالة عليه الآيات القرآنية وهو أهم خطأ وقع فيه.

11. كان الرجل معجبا بنفسه شديد الإعجاب، ويتضح هذا من خلال كثرة انتقاصه من غيره، وكثرة التزكية لتفسيره من خلال ترديده لعبارة " بمثل هذا تفسر هذه الآيات .. " وقوله: " .. ومثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله".

12 . تأثره بخليط من الفلاسفة من الشرق والغرب، ونقله عنهم بعضا مما هو غريب عن الفكر الإسلامي وعن الفكر السليم بصفة عامة مثل فلاسفة اليونان وفلاسفة الغرب وإخوان الصفا وغيرهم.

والظاهر أن العلامة طنطاوي جوهري إنما وقع في مثل هذه النقائص بحكم وقوعه تحت تأثير جملة الأسباب . لا يتسع المقام لتفصيلها هنا . حملته على وضع هذا التفسير، وليس بالضرورة أن يكون كتابه هذا هو النموذج الأمثل في التفسير العلمي للقرآن الكريم.

والذي وصلنا إليه بعد البحث هو أن الذي ينبغي فهمه من عبارة التفسير العلمي يتمثل في البحث في سر المطابقة الكلية التي يلاحظها الباحث بين العبارة القرآنية والواقع الذي تشير إليه، ولا يمكن الوقوف على هذا هذه المطابقة إلا عن طريق العلم.

لذلك لاحظنا أنه من أوجه الإعجاز في القرآن ما سميناه أسبقية زمنية¹ وهي كما رأينا قاسم مشترك بين معجزات الأنبياء جميعا (ومثال ذلك معجزات عيسى عليه السلام عندما كان يبرئ الأكمه والأبرص، فإن الطب اليوم وإن وصل إلى فعل بعض ما كان عيسى عليه السلام يفعله من تطبيب الناس، فإنه لا مجال للمقارنة بين هذا وذاك، لأن ما يفعله الطبيب اليوم إنما يفعله وفق الأسباب وقوانين العلم من ملاحظة وفرضية وتجربة ومرحلية وتدرج في العملية كلها، وأما ما فعله عيسى عليه السلام فوجه الإعجاز فيه أنه قائم على خرق كل تلك الأسباب، مما يجعل تطيبه باقيا يحمل معنى الإعجاز على وجه الدوام).²

¹ . هند شليبي ، التفسير العلمي للقرآن بين النظرية والتطبيق، تونس 1985، ص:163.

² . المصدر نفسه: 163.

وإذا كانت بلاغة القرآن الكريم التي تمثل أحد جوانب الإعجاز فيه قد جذبت إليها أرباب البيان فوضعوا المؤلفات الكثيرة في الكشف عن الإعجاز البلاغي فيه، واعتبر ذلك خدمة للقرآن الكريم، ولم يقل أحد إن هذا إسراف يؤدي إلى القول بأن القرآن الكريم جاء لإضافة فنون جديدة في لغة العرب كما لم يقل أحد من أهل العلم بأن في هذه الدراسات تكلفا وتحميلا لعبارات القرآن ما لا تحتمله أو أن هذه التقنيات البلاغية التي وضعوها ووظفوها في الكشف عن معجزة القرآن البلاغية طارئة ولم يعرفها الصحابة، بل كان للقرآن الكريم الفضل الأول في استنباط مختلف قواعد اللغة العربية وعلومها من نحو وصرف وبلاغة.

فإذا كان أرباب البيان يتدبرون بلاغة القرآن ويستنبطون منه أصول التعبير ويستدلون بذلك على إعجازه، فإن الأمر لا يختلف فيما تضمنه القرآن من أخبار الغيوب أن يستدل بها على صحة بعض العلوم أو بطلانها زيادة على الدلالة الإعجازية فيها .

ومما ينبغي التنبيه عليه من جهة أخرى أن الله تعالى قد ذكر في كتابه الكريم أن القرآن معجز بمعنى لا يستطيع أي مخلوق من الجن والإنس أن يأتي بمثله، وقد تكرر التأكيد على كونه معجزا في عدة مواضع من القرآن الكريم، ولكنه لم يصرح ولو في موضع واحد من هذه المواضع بوجه الإعجاز فيه وسره، وإنما استدللنا على ذلك بأن معجزة كل نبي إنما تكون فيما برع فيه قومه، وأن معجزة محمد . ص . كانت بلاغية لكون العرب يومئذ قد برعوا ونبغوا في بلاغة التعبير وفنون القول والخطاب،

وإذا كان العرب يوم نزول القرآن الكريم كما وصفهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: "كان الشعر علم القوم، لم يكن لهم علم أصح منه"¹ فإن هماتهم تعلقت بما علموه من بلاغة الكلام فتدبروه من هذا الجانب، وأظهروا إعجازه وفهموا ما وسعهم فهمه، ولا يقدر في مكانتهم كونهم لم يفهموا الآيات المتعلقة بجانب الإعجاز العلمي، لأن أدوات البحث في هذا الجانب لم تكن متوفرة، وبكفيهم أن الإعجاز البلاغي قد سد مسده، وقامت به الحجة عليهم، وقد أقر بذلك مؤمنهم وكافرهم .

¹ . د/أحمد رحمان ، نظريا الإعجاز القرآني، ص:128.

فقد ترجح إذن أن يكون التحدي واقعا لهم من هذا الجانب، وهذا صحيح، ولكنه لما كان التحدي غير مقصور على زمان معين أو مكان محدد، بل هو أمر مستمر إلى أن تقوم الساعة لقوله تعالى: " قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله.."¹ وقوله: " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة.."²

فإن هذا يقضي بأن التحدي بالقرآن الكريم قائم من وجوه كثيرة، ولكل أهل عصر أن يبحثوا في هذا الكتاب عن سر الإعجاز والتحدي بما يزيدهم إيمانا بكلام ربهم ويقوي تعلقهم به .

وهكذا فإن الذين عللوا إعجاز القرآن في القرون الأولى ببلاغته بناء على ذوقهم وحسهم البلاغي الرفيع فإن ذلك يناسب حالهم، وكذلك الذين ذهبوا إلى تعليل سر إعجاز القرآن الكريم في عصر العلوم التطبيقية بما تضمنه من إشارات علمية دقيقة قد أحسنوا التعليل أيضا بما يناسب حالهم أيضا، وهم يستندون في ذلك إلى قوله تعالى: " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد"³ وبهذا نكون قد قدمنا لمحة موجزة عن مناهج التفسير منذ النشأة إلى ما قبل العصر الحديث لتكون مفتاحا لطلبتنا الأكارم في هذه المرحلة عند التعامل مع كتب التفسير، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على النبي المختار وأصحابه الأخيار وآل بيته الأطهار. آمين

وإن تجدد عيبا فسدّ الخلا
جلّ من لا يخطئ وعلا

¹ . سورة الإسراء ، الآية: 88.

² . سورة البقرة، الآية: 23. 22.

³ . سورة فصلت، الآية: 52.